شخصيات مجمعية

في الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين ١٢ من صفر سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ٢٧ من مارس سنة ١٩٧٢ م أقام المجمع حفل استقبال عضوية الجديدين : الدكتور الشيخ محمد الفحام ، والأستاذ على السباعى .

وفيما يلى الكلمات التى ألقيت فى الحفل :

كلمة الدكتور أحمد عمار فى استقبال :

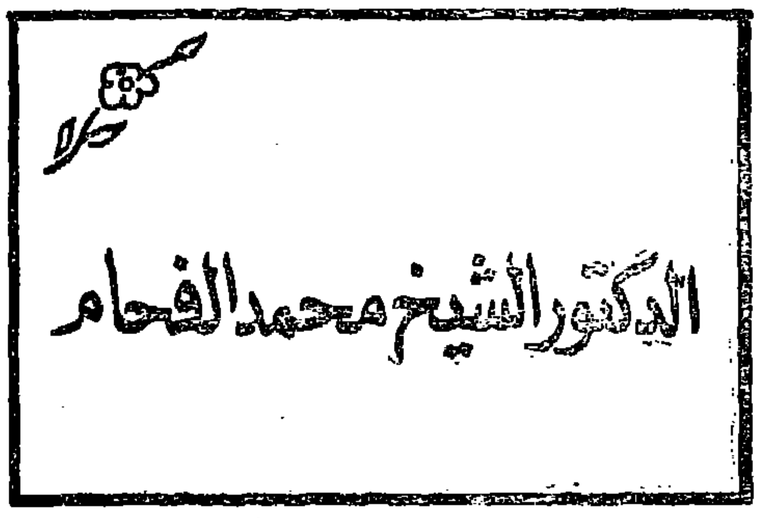

سيدى الرئيس ، أيها السادة :

فى فرحة غامرة ، وفى هزة من الارتياح إزدهانى أن يقع علىَّ اختيار مجمعنا الموقر لأقدِّم الزميل الجديد الأستاذ الإمام الدكتور محمدًا الفحام ورحبت بهذا التكليف ، بل عددته أقرب إلى التشريف ، ولكنى لما أزف الموعد ، وحشدتُ همتى لكتابة هذه الكلمة ألفيتنى أسأل نفسى : كيف قبلت أن أقوم بهذه المهمة الشاقة ؛ وتعاظمنى أمرها . وهل أشقُّ من أن يتحدث المرء عن الجلِّ المعروف .

ما كان أغنى الدكتور الفحام عن التقديم . ولو كان هذا التقليد الذى جرينا عليه من استقبال الأعضاء الجُدُد والتعريف بهم خليقًا أن يترك ، لذيوع صيت ، أو لشرف منصب ، لكان أولى أن يترك فى شأن الإمام الأكبر ، شيخ الأزهر . ولكنها فرصة سنحت ، أغتنمها اليوم لتحية هذا الرجل ، الرضىِّ الصامت المتواضع ، الذى تخيّرته العناية لإمامة أقدم جامعة إسلامية فى التاريخ ، واصطفته لها ، بسطةً فى العلم ، ورجاحةً فى العقل ، وسماحة فى الخلق .

وإن مجال القول فيه لفسيح ذو سَعَة ، ولكن المقام عنه يضيق ، وبحسبى أن أوجز القول فيه بكلمات ، وأجتزئ منه بإشارات ، تغنى عن عبارات ، وخير الكلام ما أغنى قليله عن كثيره .

سادتى :

إن بين الأزهر الشريف ومجمع اللغة العربية لرحمًا ماسَّة ، ونَسبًا قريبًا . هذا يحافظ على القرآن الكريم كتابِ العربيةِ الأكبرِ ، و هذا يرعى اللغة العربية ويجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون والحضارة .

فأعضاء المجمع ورجال الأزهر فى الفصحى ذوو قربى ، تجمعهم وَحدة المرمى . وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض . فلا غرو أن يكون من بين أعضاء مجمعنا هذا منذ إنشائه كثيرٌ من أئمة الأزهر وشيوخه ، ممن يقول فيهم شوقى :

واخشع مليًّا واقض حق أئمة
طلعوا به زُهْرًا وماجوا أبحرا
كانوا أجلَّ من الملوك جلالةً
وأعزَّ سلطانًا وأعظمَ منظرا

وحسبك أن يكون منهم : المراغى ، وعبد الرازق ، وحمروش ، والخضر ، وتاج ، وشلتوت ، والفحام .

والأزهر للإسلام ، على مر القرون ، هو الطود الأشمّ تتكسر على عتباته أمواج الباطل. ولعلوم الدين، على تعاقب العصور ، منارُ الهدى يبدد ظلمات الضلال . وللغة العربية ، على مدى السنين ، المنهل الصافى ينقع الغُلَّة ، ويغترف منه طلاب البيان . وهو بعدُ ، كعبةُ العلم ، وملتقى العلماء ، وحارسُ التراث الروحى للبشرية .

أيها السادة :

لأستاذنا الأكبر قصة طريفة ، أوجزها فى كلمات ثم أعود فأذكر منها ملحا تثير الدهشة والتأمُّل والإعجاب .

ولد بالإسكندرية لأبوين كريمين فى الثامن عشر من سبتمبر سنة أربع وتسعين وثمانمائة وألف ، فحفظ القرآن الكريم وجوده . ثم دخل المعهد الدينى بها ، فنال شهادتيه الإبتدائية والثانوية . ثم نال شهادة العالِمية النظامية الأزهرية سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف .

ويختاره الأزهر سنة ست وثلاثين ، حين يختار بعثةً من نوابغ العلماء للسفر إلى أوربا فيرسَل إلى باريس للحصول على الدكتواه فى الآداب ، فيمكث بها عشر سنينَ هو وزوجه وأبناؤه ، وقد قامت الحرب العالمية الثانية . ويلقى ما يلقى من الشقاء والعناء . ولكنه ينال ليسانس السوربون ، وعدة دبلومات . ثم طفق يرقى فى مدارج العلم حتى يبلغ أعلى مراتبه ويتوج تحصيله بدكتوراه الآداب بدرجة الشرف الممتازة من جامعة باريس سنة ست وأربعين . أما موضوع رسالته فكان « معجم عربى فرنسى لاصطلاحات النحويين والصَّرفيين العرب » ، مما حَظِىَ بإعجاب الأساتذة والمستشرقين وسرورهم حتى قال له أحدهم وقد رأى فيه مبلغ تمكنه من العربية

وبصرِه بأسرارها : ما أظن أن قد وَطِئتْ أرضَ فرنسا قدمُ رجل أعلم منك باللغة العربية .

ثم يعود من بعثته العلمية بنعمة من الله وفضل ، وقد طارت شهرته فى علوم اللغة ، فيعهد إليه بتدريس الأدب المقارن بكلية اللغة العربية ، ثم بتدريس النحو بكلية آداب جامعة الإسكندرية ، فيأتى بالجديد المعجب ، ويشق فيه طرائق قِددًا ،ويفتح آفاقًا جُدُدًا ، ويمحو منه ما يستشعر فيه من ثقل ، وييسِّر ما يحفل به من حيل . ويُخرج للناس كتابًا عن سيبويه ، وعن صراعه مع مخالفيه فى بعض القضايا النحوية كقضية : «فإذا هو هى أو إياها » . ويظل يرقى فى مناصب التدريس حتى يصبح عميدًا لكلية اللغة العربية ، إلى أن يحال على المعاش . ثم يعكف على القراءة والدرس والتزود من العلم فى مكتبته الضخمة ؛ يطيل النظر فى مجلداتها يستجلى غوامضها ، ويستخرج نفائسها نحو عشرِ سنين ، إلى أن يقع عليه الاختيار ليكون الإمام الأكبر للأزهر الشريف سنة تسع وستين.

على أن الذى فتَنَ الفتى محمدًا الفحام واستهواه فى مطلع شبابه لم يكن النحو ، ولكن كان المنطقَ فى أول الأمر ، ثم الجغرافيا بعد ذلك . فأما المنطق فإنا نراه يكتب فيه وهو ما يزال طالبًا بالسنة الثانية الثانوية بالمعهد الدينى كتيِّبًا سماه «رسالة فى الموجَّهات » فى أسلوب رائق، يذيع خبره بين زملائه ، ويطلبه طلاب المعاهد فى غير الإسكندرية . وينتفع به طلاب العالمية المؤقتة . ويُعْجَب به الأساتذة ، فلا يزيده ذلك إلا تواضعًا وانكبابًا على الدرس والتحصيل .

وأما الجغرافيا ، فقد بلغ من شغفه بها أنه كان يستأذن أستاذه فى أن يذهب إلى حجرة الخرائط فيغلقُها على نفسه طول الليل ، ويضيئها بسراج من عنده ،ويظل يدرس حتى الصباح كما كان يفعل الجاحظ فى مكتبات الوراقين ببغداد ، حتى تهيأ له فى الجغرافيا الشىءُ الكثير . ولكن الأقدار لم تشأ له استكمال دراستها علمًا ، فأتاحت له بعد ذلك دراستها عملا وتطبيقا فى رَحَلاته الموصولة التى طاف فيها بقاع الأرض من مشارقها إلى مغاربها ، موفدًا من الأزهر الشريف ، أو مدعوًّا من مختلِف الحكومات والأمم .

رحل أول ما رحل إلى لبنان ليمثل الأزهر فى مؤتمر ثقافى سنة سبع وأربعين .

ثم رحل إلى نيجيريا بتكليف من الأزهر لدراسة أحوال المسلمين بها والوقوف على ما يصلح عليه أمرُهم ، وظل بها خمسة أشهر ، رغم ما حذره منها جماعة المبشرين المسيحيين الذين سبقوه إليها ، من أنها مقبرة الرجل الأبيض ؛ ولكنه خرج من بيته وهو يقرأ قوله تعالى : «ومن يَخْرُجْ من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركْهُ الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورًا رحيمًا » . ثم يختار عددًا من أبناء تلك البلاد للدراسة بالأزهر ، وطائفةً من أساتذة الأزهر للتدريس بها ، إلى أن أصبح بها الآن عدد كبير من العلماء يؤدون بها أجَلَّ الخدمات ، من قضاة ومعلمين وغيرهم ، ومدارسُ لتعليم اللغة العربية .

ثم رحل إلى باكستان ثلاث رَحَلات ، وقضى بها ستةَ أشهر كاملة . اتصل فيها بالعلماء والأئمة ، وزار كثيرًا من معاهدها العلمية ومكتباتها .

ثم رحل إلى موريتانيا ، وأسهم فى إنشاء مكتبة إسلامية عظيمة بها ،واشترك فى مناقشات فى الفقه والدين ، كان من أثرها أن مُنِح وثيقةَ «مواطنٍ موريتانى » .

ثم رَحَل إلى إندونيسيا مُمثلاً للأزهر ثلاث رحلات ، تعلقت به قلوب المسلمين فيها .

ثم رحل إلى إسبانيا لزيارة الآثار العربية الإسلامية بها .

ثم إلى السودان ، والتقى بالعلماء فيه ، ثم إلى الجزائر ، وإلى إيران وإلى ليبيا .

أما السعودية فقد زارها خمس مرات : ثلاثا منها لأداء فريضة الحج ، واثنين للعمرة.

سادتى :

أستأذنكم فى أن أقف بكم وقفات قصارًا فى تاريخ زميلنا العظيم ، وكما أسلفت ، رُبَّ إشارة أغنت عن عبارة .

إنه رجل ذو نفس لَوَّامة . يحاسب نفسه ويعاتبها ، ويتجاوز عن إساءات الناس ويتسامح فيها ، تلك هى نفس المؤمن . تدوسه مرةً عجلة من هذه العجلات التى تجرها الخيل وهو صبى يسير فى أحد شوارع الإسكندرية ، فلا يعرض لسائقها بسوء ، ويلوم نفسه على أن سار فى وسط الطريق ، ويصيب رأسَه شُبَّاكُ نافذة انفتح بغتةً وهو يسير إلى جانب الطريق ، فيلوم نفسه على أنه سار بجانب جدران المنازل . حتى إذا بلغ أشدَّه وأصبح مدرسا

يحاضر الطلبة ، فربما تشاغل طالب عن الإصغاء إليه ، فيلوم نفسه على أنه لم يحسن إعداد درسه أو لم يحسن إلقاءه .

وحضر إلى معهد الإسكندرية الدينى شيخُ الأزهر ، الشيخ سليمٌ البشرى ، وكان عَلاَّمَة عصره ، ومعه كبار العلماء ، فى مقدمتهم الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى شيخُ معهد الإسكندرية ، الذى تولى مشيخة الأزهر بعد ذلك ، وكان الوقت وقت امتحان الطلبة ، فاهتزت هيئة الممتحنين وجاءوا بالطالب محمد الفحام الطالب بالسنة الثانية الإبتدائية أمام لجنة الامتحان . فسأله البشرىُّ فى باب نائب الفاعل ، فقال : إن بعض النحاة يسميه بابَ المفعول الذى لم يُسَمَّ فاعله . فقال البشرى : فأىَّ العنوانين العنوانين تفضل ؟ قال : أفضل الأول لسببين : لأنه أوجزُ عبارة ، ولأن نائب الفاعل لا يكون دائمًا هو المفعول به ، كأن يكون ظرفًا مثل قولك : سُهِرَتْ الليلةُ ، أو مصدرًا مثل قولك : كُتِبَتْ كتابةٌ حسنة ، أو جارًّا ومجرورًا مثل قولك : نُظِرَ فى الأمر . وأفاض شيخ الأزهر فى الأسئلة لما رآه من نجابة الطالب.

ثم سأل إن كان هذا الطالب بالسنة الثانية الإبتدائية أم الثانوية ، ثم قرأ له الفاتحة ودعا له بالخير والبركة .

وفى باريس ، كان أحد الأساتذة الفرنسيين يترجم فقرات من العربية إلى الفرنسية ، فأخطأ فى الترجمة . واستحيا الطالب الفحام أن يصحح ترجمة الأستاذ فقال له زميل سورى : أهذه الترجمة صحيحة ؟ قال الفحام : لا . فقال له : فما يمنعك من تصحيحها ؟ قال : يمنعنى الحياءُ . فاستأذنه فى أن يردَّ على الأستاذ باسمه ، ثم قام فصحح الترجمة . فسُرَّ الأستاذ وقال : إن النور يأتينا دائمًا من الشرق !

وكان كثيراً ما يُرَدِّدُ ، وهو فى بَعثته بباريس عبارةً قرأها لرجل فرنسى يعظ ابنه ويقول : يا بُنَىَّ ، اعلم أنك إذا كنت فى فرنسا فأنت فرنسى واحد . أما إذا كنت فى خارج فرنسا فأنت كل الفرنسيين . ولقد ظل يعمل بهذه النصيحة فكان فى غربته كلَّ مصرى ، وكل عربى ، وكل مسلم ، وكل أزهرى . إن النضج الفكرىَّ ، أيها السادة ، إذا ما صادف

نفساً طيبةً صنع فيها ما يصنع الغيث في التربة الكريمة.

وذهبت أنا وأخي الأكبر الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين لتهنئته بمنصبه إماماً للأزهر وكنا قد عملنا ثلاثتنا منذ بضع سِنينَ قبلَ ذلك في لجنة للمعجمات بوزارة الثقافة، كان على رأسها عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، أطال الله عمره، وكان معنا فيها العقاد والزيات والدكتور أحمد رياض تركي، عليهم رحمة الله ورضوانه. وكان للدكتور الفحام ولُوع شديد بجموع التكسير، فلما دخلنا عليه مهنئين، وجلسنا إليه، لم يلبث أن قال لي مداعباً: أما تزال على زعمك أن الظُّفر لا يجمع إلا على أظفار لا أظافر؟ قلت: هذا ما جاء في معجمات اللغة، ولكني وجدت تسويغاً لأظافر. فالظُّفر هو الأُظفور، وجمع الأُظفور أظافير، ولك أن تحذف الياء منهافتقول أظافر. فتبسم ضاحكا وقال: الحمد لله الذي هداك إلى وجه الصواب فيها.

فأردت أن أداعبه بمثل دعابته لآخذ بثأري. فسألته إن كان لا يزال يذكر إعراب بيت جرير:

لا تطلبَنَّ خؤولةً في تغلِبٍ
فالزَّنْجُ أكرم منهمو أخوالا

قال: نعم: وأذكر قولك إن المبرِّد هو الذي يقول: أخوالا منصوبة على الحال، ومن زعم أنها تمييزٌ فقد أخطأ.

أيها الزميل الجديد:

إنك بحكم منصبك الخطير على ألسنة الناس كافة، وإنهم ليُرْهِفون آذانهم لما تقول، ويفتحون عيونهم لما تفعل، يسجِّلون عليك كلماتِكَ، ويَعُدُّون عليك خُطُواتِك، فَهَلُمَّ إلى هذا المحراب الهادي، والحرم الآمِنْ. وخُذ مكانك مع سَدَنة الفصحى، فإنهم مرحبون بك، مستبشرون بمقْدَمِكَ، وشاركهم عملَهم الصامت، في غير علانية ولا سمعة. وظاهرهم في شدِّ أزر اللغة والنهوض بها، وتجديدِ شبابها لكي تتسع لكل جديد. فالطريق طويل، والعبءُ ثقيل.

والجاحظ يقول: ليس على العلم أضرّ من قولهم: لم يترك الأولُ للآخرِ شيئاً، فإنه يُفَتِّرُ الهمة ويُضْعف المُنة. وما أصدق ما قال.

وبعد: فإني أجدد لك التهنئة باسمي واسم زملائك المجمعيين.

• • كلمة الامام الأكبر الدكتور الشيخ محمد محمد الفحام

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين.

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

السيد الأستاذ المفضال الدكتور رئيس المجمع .

حضرات السادة الأفاضل أعضاء المجمع

أيها السادة الزملاء والأصدقاء :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ،

وبعد :

فباسم الإسلام ولسانه العربى المبين ، أحييكم أطيب تحية ، وأقدر لكم فضلكم كل التقدير لحرصكم على حضور هذا الحفل العظيم ، إنكم لا تكرمون عضوين جديدين تفضل السادة الأساتذة الأجلاء أعضاء المجمع بانتخابهما ، ليشاركا فى أعماله العظيمة بقدر تكريمكم للغة العربية نفسها ، اللغة العربية التى سهرت القرون الطويلة فى يقظة شديدة ، ووعى كبير لحماية الدين الإسلامى ، والتراث الثقافى للعرب والمسلمين على السواء .

أما أنتم أيها السادة الأساتذة والأصدقاء أعضاء المجمع ، فاسمحوا لى أن أقدم لكم شكرى خالصًا على تفضلكم باختيارى عضواً بمجمعكم الموقر الخالد بإذن الله خلود اللغة العربية نفسها ، والذى تتطلع إليه أنظار العالم العربى وتعده معقل العربية وحارسها الأمين .

وإنى لأعلم علماً ليس بالظن أنكم إذ تكرمونني .. إنما تكرمون الأزهر الذى أشرف بالانتساب إليه .. إنما تكرمون الأزهر الذى أسعد بخدمته .. إنما تكرمون الأزهر الذى كان وما زال .. ولن يزال ـ إن شاء الله ـ الحصن الحصين .. والحارس الأمين لعلوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية .

أعلم أيها السادة الكرام أنكم تؤدون الأمانة كاملة غير منقوصة ، إذ قمتم بدراسات عربية عميقة فى النحو والصرف والمعاجم والمصطلحات العلمية والدراسات الأدبية . . واتخذتم قرارات لغوية كثيرة لتصبح العربية لغة سهلة يسيرة تلبى الأغراض المختلفة لمطالب عصرنا مثلها مثل غيرها من اللغات الأوربية الحية .

قمتم بهذا كله فيما يقرب من أربعين عاماً ، مما عجزت الأكاديمية الفرنسية نفسها عن تحقيق مثله فى ثلاثة قرون وسبعة وثلاثين عاماً حتى الآن .

إنه لعمل عظيم مشكور قمتم به مضحين فى سبيله براحتكم ، ولكن حب العربية والتمسك بها ، والحرص على سلامتها ، لها ثمن باهظ لا يقدر عليه إلا أولوالعزم من أئمة اللغة والأساتذة والعلماء الأجلاء ، ممن وهبهم الله الصبر الجميل والقدرة الكبيرة ، وأمدهم بروح من عنده .

يسعدنى ويشرفنى أن أعمل معكم فى هذا الميدان الكريم ، وأعاهدكم أمام الله أنى سأبذل ما أستطيع من جهد لأشارك مشاركة فعالة فى أن أحمل معكم بعض أعباء البحوث اللغوية فى ود ووفاء ، وصداقة وصفاء ، لنحقق الأغراض السامية التى أنشىء هذا المجمع لتحقيقها .

أما مستقبلى ، الأخ الكريم ، الطبيب النابه ، واللغوى الكبير ، الدكتور أحمد عمار ، فإنى أستأذنه فى أن يسمح لى بأن أتقدم إليه بخالص شكرى ، لما تفضل علىّ به من ثناء أملته عليه صحبة كريمة ، وأخوة صادقة ، حين كنا نعمل سويًا فى لجنة علمية لغوية ،شاركنا فيها الأستاذ الدكتور رئيس المجمع والعالم الكبير واللغوى القدير الدكتور محمد كامل حسين

ورحم الله العقاد . . والزيات . . والدكتور أحمد رياض تركى .

ولا غرابة فيما سمعت من الأخ الكريم ، والصديق الحميم الدكتور أحمد عمار ، فقديما قيل : « حسن فى كل عين من تود » . . وإنى لأرجو أن أكون وإياه ممن ورد فيهم الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله يوم لاظل إلا ظله » . . وذكر منهم : « ورجلان تحابا فى الله . . اجتمعا عليه . . وتفرقا عليه » .

كنت قبل أن أسعد بصحبتهم ، وأشرف بالعمل معهم ، أزعم مع الزاعمين أن اللغة العربية لا تحيا إلا فى الأزهر ، ودارالعلوم وكليات الآداب ، ومجمع اللغة العربية ، ولكن ما كادت تعرض علينا بعض مسائل اللغة ، ويبدى الأخوان الكريمان : الدكتور أحمد عمار والدكتور محمد كامل حسين .. آراءهما وملاحظاتهما حتى امتلأت نفسى بشرًا وسرورًا . . واطمئنانًا . . وعم قلبى حب كبير ، وتقدير عظيم لهما .

أخى الدكتور عمار . . إن الطب واللغة يتنازعانك منذ زمن طويل . . ولكنك عرفت برجاحة عقلك ، وذكائك الشديد ، كيف تعدل بينهما فعاشا سويًّا فى نفسك وذهنك عيشة راضية ، فكنت طبيبًا نابها . . ولغويا كبيرًا . . لك شأنك ومكانتك .

على أنى لا أخفى عليك أن بعض أصدقائنا الظرفاء يزعمون أنك تمارس الطب نظريا وعلميا وجراحيا ، بالعربية الفصحى .

أخى الكريم . . أكرر لك الشكر صادقا ، وأسأل الله تعالى أن يمتعك دائمًا بصحة ، موفورة وسعادة شاملة ، وتوفيق دائم فى ميدانى عملك العلمى واللغوى على السواء .

السادة الزملاء أعضاء المجمع :

تعلمون يقيناً ، أن اللغة العربية دخلت فى صراع مرير مع لغات أخرى كثيرة ، فكتب لها النصر دائماً بفضل القرآن الكريم ، والسنة المحمدية ، والحضارة الإسلامية المشرقة ، وظلت اللغة العربية قوية فتية على مر العصور ، وإن كانت قد ابتليت هى وأهلها بأزمات استعمارية ، تكاد تكون قاتلة ، حين تسلط التتار على العراق ، والصليبيون على الشام ، والفرنج على الأندلس ، والأوربيون على الوطن العربى ، ولكنها لم تستكن كما استكانت أخواتها السامية وبنات عمومتها الحامية ، وقاومت مقاومة عنيفة ، فلم تلق مصير اللغات السنسكريتية ، واليونانية القديمة ، واللاتينية ، وما إليها من اللغات الأخرى التى اندثرت وبقيت أسماؤها مجرد ذكرى فى تاريخ التراث الإنسانى .

وأعلم أن هذا المجمع الموقر ، لا يعيش فى برج عاجى ، كما يزعم بعض الناس ، ولكنه يحيا حياة عصره بطريقة واعية ، قريباً كل القرب من جميع القضايا التى تثار حول اللغة العربية والشعر والأساليب ، وسمع كارهاً تلك الدعوة المسرفة غير الواعية

إلى استعمال اللغة العامية بدلا من اللغة العربية الفصحى ، لقد استنكر المجمع أشد الاستنكار تلك الندوات والبحوث والمحاضرات التى تلقى دفاعاً عن العامية باسم الحرية تارة ، وباسم الديمقراطية تارة أخرى ، ثم باسم التيسير والسهولة دائماً ، ماداموا يكتبون كما يتكلمون على نحوما يزعمون .

أية حرية ، وأية ديمقراطية تلك التى تعمل على تفتيت أوصال أمة عربية قويت قوميتها وتتدعم حالياً وحدتها بإذن الله ، وبفضل يقظة الوعى العربى .

ثم بأية لغة عامية يريدون أن يكتبوا ؟ أيستخدم كل بلد عربى لهجة عاصمته لتزداد البلبلة وتعم الفوضى ، ويتمزق العالم العربى من جديد ؟ إن هذا هو مايبتغيه أعداء العالم العربى ، والدين الإسلامى ، لتظل الفرقة قائمة بيننا .

« كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » . إن اللغة العربية ليست هى اللغة الوحيدة التى توجد بها لهجات ، كانت لها لهجاتها القديمة ؛ ولها لهجاتها الحديثة الآن ، شأنها فى هذا شأن كل اللغات الحية المعاصرة بلهجاتها المحلية التى تختلف من إقليم إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر ، ولها لهجاتها الاجتماعية التى تختلف داخل المجتمع الواحد ، بتباين المهن والحرف ، ونوع التعليم ودرجة ثقافة الناس وطرق معيشتهم فى حياتهم اليومية ، ويتضح هذا كله تماماً فى المصورات اللغوية حيث نرى مناطق لغوية تتفق فيها ظواهر اللغة نطقاً ولفظاً ومعنى ، وداخل هذه المناطق نشاهد جزراً تخالف ظواهرها اللغوية تلك التى نراها فى المناطق مخالفة كلية أو جزئية .

هذا هو ما نجده فى اللغات الحية المعاصرة معربة كانت أو غير معربة ، ولم نسمع فى محيط هذه اللغات مثل هذه الدعوة الأثيمة التى تتردد فى أرجاء الوطن العربى ؛ مشرقه ومغربه .

نعم . . لم نقرأ أدباً فرنسيًّا ، كتب بإحدى لهجات اللغة الفرنسية ، ولا أدباً إنجليزيًّا ، كتب بلهجة إنجليزية ؛ لأن مثل هذه الأمم تحرص حرصاً شديداً على لغاتها وتراثها وحضارتها وثقافتها .

ولا أعتقد أبداً أننا أقل منهم غيرة على لغتنا وديننا وعلومنا وتاريخنا وكياننا وكرامتنا العربية .

أيها السادة الزملاءُ الكرام :

ليس هذا درساً أُلقيه ، ولا محاضرة أعددتها ، وما كان لى أن أسمح لنفسى بهذا ، وإلا كنت كمستبضع التمر إلى هجر ، كما يقول المثل العربى ، أو كحامل الماء إلى النهر ، كما يقول المثل الفرنسى ، أو كحامل الخشب إلى الغابة كما يقول المثل اللاتينى .

وإنما هى ملاحظات تجول دون ريب بخواطركم جميعاً ، لأنها مستمدة من واقعنا اللغوى الأليم الذى تحطمت فيه قواعد اللغة ؛ فزلت الألسنة ، وأخطأت الأقلام ، وانخفض مستوى الأدب العربى انخفاضاً ذريعاً ، حتى اجتراً عليه من لا يفهمه ومن لا يقدر عليه .

وأخلص من هذا كله ، إلى أنى أرجو السادة أعضاءَ المجمع . . رجاءً حارًّا . .ليتفضلوا مشكورين بدراسة هذه الأزمة بكل أبعادها بطريقتهم العلمية الواعية العميقة ليكشفوا للعالم العربى عن أسبابها وطرق علاجها ، سواءً أكان ذلك فى طريقة تعليم اللغة ، أم فى إعداد معلميها ، أم فى عدمَ ربط اللغة بالمواد الأخرى التى تدرس فى مراحل التعليم المختلفة ، أم فى هبوط مستوى التعليم ، أم أن هناك أسباباً أخرى قد تخفى علىَّ ولكنها لا تخفى عليكم ، دقوا أجراس الخطر فى جميع أرجاءِ الوطن العربى ،ولتكن أجهزة الإعلام من ورائكم تشد أزركم ، على شريطة أن تتطهر من الأخطاءِ الفاحشة التى تقع فيها ألسنة بعض المذيعين والمذيعات وأقلام بعض الصحفيين والكتاب ، أنصاف المثقفين الذين تجرى على ألستنهم الأخطاءُ الفاحشة المنكرة ؛ فهم يقولون : التجرُبة مكان التجربة أو التجريب ، ويقولون التجارُب مكان التجارِب ، والوفيَّات بدل الوفَيات والتُّجارية بدل التِّجارية . وتَوفَّى فلان بدل تُوُفِّىَ ، وآمَل بدل آمُل ، ومن ثُم بدل ومن ثَمَّ . وقال أن بدل وقال إن . وغير ذلك كثير مما تتصدع عند سماعه الرؤُوس.

إن الأُمية العربية وباءٌ وبيل ، فلنقاوم هذا الوباءَ مقاومة لا هوادة فيها ، ولنكافحه كفاحاً شديداً ، ولندع لتكوين جمعيات لغوية أهلية فى جميع الأوساط العلمية واللغوية لتساند المجامع اللغوية فى الحفاظ على اللغة العربية الفصحى « يجب أن نتحول أنظار الجميع وتُعباً قلوب الجميع لإحياءِ الفصحى، لأنها هى الجامعة الكبرى لنهضة البلاد العربية » كما قال سلفى المرحوم توفيق دياب فى قوة وصدق .

السيد الأُستاذ الدكتور الرئيس :

اسمح لى أن أذكر مرة أُخرى أن هذه الملاحظات ليست من المدارسات فى شيء لأنني مقتنع تماماً بقولك للزميل الراحل المرحوم محمد توفيق دياب . . حين سألك قائلا : أليس التقليد المتبع إذا احتفلت المحافل بعضو جديد يوم استقباله أن قد يكون قد أعد دراسة مبتكرة فى باب من أبواب اللغة ، يتقدم فيها بمذهب جديد ، . أو مقترح طريف أو بتوجيه مرشد إلى اصطلاح فى ناحية ما من هذا الموضوع المترامى الأطراف الذى يشغل المجمع ، ومن شأنه أن يشغل كل عربى يهمه لسان العرب ؟

فأجبته قائلا : « كلا ، ليس من الكياسة أن يبدأ العضو الجديد بدرس يلقيه على الأعضاء يوم استقباله فى حفل عام ، إن المدارسات لا تكون فى بهو الاستقبال ولا فى ساعات الاستقبال » .

السادة الأساتذة أعضاء المجمع :

جرت تقاليدكم الكريمة ، فى مجمعكم الموقر أن يتكلم الخلف عن السلف مشيدًا بمواهبه . . منوهاً بفضله في ميدان عمله ، مبرزًا خدماته لوطنه ومواطنيه .

لقد كرمتم المرحوم الأُستاذ محمد توفيق دياب خير تكريم . . استقبله الأستاذ الرئيس الدكتور طه حسين فى الثامن من شهر مايو سنة ١٩٥٤ أكرم استقبال ببيانه الرائع وأُسلوبه السهل الممتنع الرفيع الذى عرف به عميد الأدب العربى ، والذى أعده خير مافى أدبى الجاحظ وفولتير ، ثم انتقل إلى جوار ربه فى الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩٦٧ .

ومن غريب المصادفات أن يموت توفيق دياب فى يوم مجده قبل موته بتسع وأربعين سنة حين كتب مقالا رائعاً يحيي فيه الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ حين ذهب الوفد المصرى برياسة سعد زغلول إلى دار المندوب السامى مطالباً بحق مصر فى الحرية والاستقلال . خاطب ذلك اليوم بنزعة إنسانية خالصة وشعور صوفى عارم قائلا :

« لك الخلود والتقديس أيها اليوم الساطع بين غيوم السنين . . لقد جئت نفحة علوية من عند الله كى تعلم اللاصقين بالأرض منا كيف يطمحون إلى السماء بالعقول والقلوب والهمم ، كم وددنا ، أيها اليوم الأغر ، لو دمت فينا سرمدا ،

لا لنجاهد خصيمة الأمس وحليفة اليوم ، ولكن لنجاهد فى طوايانا شرور أنفسنا ، ولا لنريق دماً زكيا أو نزهق روحاً غالية ولكن لنريق بيننا كل شهوة خبيثة وكل مفسدة فاشية .

اجتمعتم أيها السادة فى السابع عشر من يناير سنة ١٩٦٨ تذكرون الفقيد الكريم وترثونه فى أسى ولوعة وإجلال وإكبار .

رثاه الأستاذ الفاضل زكى المهندس ، فبكى فيه عضواً مجمعياً نشيطاً ، وعلماً من أعلام الخطابة وركناً من أركان النهضة الأدبية ، ورائداً من رواد الصحافة العربية ، ثم أبنه الشاعر العظيم والأخ الكريم الأستاذ الجليل محمد عزيز أباظة ، فسرد علينا حياته الكريمة وأرخ لعصره فى صدق وإخلاص ووفاء كبير ، لقد عرفتم للرجل حقه وذكرتم جهوده الصادقة وجهاده الشريف فى سبيل الحق والوطن والمواطنين ، فجزاكم الله خير الجزاء على وفائكم الصادق وأخوتكم الكريمة .

نشأ زميلنا الراحل ، كما يقول : صادقاً « تقياً نقيا كالأبرار من أبناء المسلمين عيوفاً حيياً كالأطهار من أبناء الريف ، فى كنف أب وطنى مقاتل ، وأسرة مسلمة كريمة ، كان والده الأمير لاى موسى (بك) دياب فى حرس الخديو توفيق ، ثم لبى نداء الثورة العرابية ، زامل أحمد عرابى ، فكان من أقرب أعوانه ، ومن أحزمهم وأكثرهم كفاية وهمة ، وكان كتاب قرية سنهوت البرك (وهى قرية من قرى منيا القمح بإقليم الشرقية) مدرسة محمد توفيق دياب الأولى ، على عادة أهل الريف فى القرن الماضى وهذا القرن، قبل أن تنتشر المدارس الإبتدائية الحكومية والأهلية لتقضى على الكتاتيب .

التحق الصبى بالكتاب ، وهو الأرجح فى الخامسة أو السادسة من عمره ، فحفظ القرآن الكريم ، وذكر فى مقال « الحرب فى قريتنا » أنه التحق بالسنة الثانية من إحدى المدارس الإبتدائية بالقاهرة حين جاءها وهو فى العاشرة من عمره ، ونحن نعلم أنها كانت مدرسة الجمالية التى حصل منها على الشهادة الإبتدائية ، غير أننا لا نعرف على التحقيق سبب إعفائه من عام دراسى كامل ، إما لأنه كان يحفظ القرآن الكريم أو لأنه قد تعلم مبادىء القراءة والكتابة والحساب فى قريته ، أو للسببين مجتمعين .

أفاد الصبى كثيرا من مجالس أُسرته حين كان يجتمع كبارهم فى المضيفة «الدوار» يتنادرون بحوادث العصور التى شهدوها ، ولعل أقرب الأحداث إلى أذهانهم ثورة عرابى التى كانت محافظة الشرقية ساحتها الكبرى .

كان يسمع فى مجلس السمر بالدوار تمدحاً عظيماً بالشجاعة والإقدام ، كما يقول ، فلا عجب أن كانت تلك الأحاديث تفيض غيظاً وحنقاً وكراهيـــة لأُولئك الذين تآمروا على ثورتهم وخانوا زعيمها ومكنوا للإنجليز من احتلال مصر .

لقد تركت أحاديث السمر فى نفس الغلام انطباعات كثيرة خلفت منه ثائراً أدبياً ، فأصبح حقًّا ابن الثورة العرابية ، مصريًّا ثائرًا ، مؤمناً بدينه ووطنه ، صادق الإيمان دائماً ، ولذلك نراه عندما التحق بالمدرسة الخديوية ليتلقى دراسته الثانوية لا يستطيع أن يستقر بها استقرار الطالب الذى يعمل جاهدًا ليفرغ لدراسة الكتب المقررة والمناهج التى تفرضها النظم المدرسية ، كان فى شغل شاغل عن هذا كله ، أعرض عن الدراسة ليقبل إقبالا شديدًا على ما يدور حوله فى المجتمع القاهرى الصاخب وقتذاك بوثبات عظيمة لتحرير أرض مصر من الاحتلال الإنجليزى ، والمناداة بالحرية والاستقلال والدستور ، كان كل هذا يجرى فى القاهرة منذ أواخر القرن الماضى ومطلع هذا القرن ، وأحس المصريون أنهم فى حاجة إلى نهضة كبيرة فى جميع المجالات تكون دعامة قوية للدعوة الوطنية الصادقة التى نادى بها مصطفى كامل ، وأذكتها فيما بعد مأساة دنشواى وروح التنافس بين الأحزاب السياسية ، التى كانت دور صحفها منتديات لشباب متأجج العاطفة ، متعطش لخوض معركة التحرير .

فى ذلك الوقت كان الشاب ممحد توفيق دياب يحاول جاهدا معرفة نفسه ، يسمع كثيرا ويتأثر بما يسمع ويقرأ ، فتردد ترددًا شديدا بين المواظبة على المدرسة والمواظبة على حضور المحاضرات وسماع الخطب والأحاديث فى نادى المدارس العليا والمنتديات المختلفة ، التى كان يغشاها شباب عصره . آثر الثانية على الأُو فطبقت عليه قوانين وزارة المعارف ، وأدخله أبوه مدرسة أهلية بالقاهرة ، فلم يكن حظه فى مدرسته الثانية خيرا من حظه فى ، المدرسة الخديوية .

رأى والده ألا مفر من أن يبعده عن هذا الجو الصاخب ، جو القاهرة الثائرة ، فنقله إلى الإسكندرية ، بعيدًا عن الزعماء والمصلحين ، وكبار الصحفيين وقادة الشباب ، لعله يفرغ لدراسته وينال شهادته . ألحقه والده بمدرسة رأس التين ، على كره منه ، فظل متمردا على الدراسة مقبلا على قراءة مايريد ، معرضاً عن كل ما يراد له . ولكنه بالرغم من ذلك حصل على الشهادة الثانوية ، وكان فى أوائل الناجحين. على أنها كانت آخر شهادة دراسية يحصل عليها زميلنا الراحل ، وما ذلك إلا لأنه أعد لنفسه خطة دراسية أخرى أعم وأشمل وأصعب من المناهج العليا ، لعلها ، تتيح له مكانا فى مصاف أولئك الذين يسمعهم يخطبون أو يحاضرون أو يتحدثون من كبار الزعماء السياسيين والخطباء والأدباء والمصلحين الاجتماعيين فى عصره .

التحق بمدرسة الحقوق بعد حصوله على الشهادة الثانوية ، فوجد أن منهجها الدراسى لا يحقق غرضه ، فآثر أن يدرس فى جامعة لندن طلبا ، للعلم والمعرفة ، وظل بها خمس سنوات يتردد على بعض الكليات ليدرس فن الإلقاء والخطابة والأدب والفلسفة والروحانيات والاقتصاد والتاريخ والحضارات ، ولم يتقدم لامتحان مّا فى كل مادرس ليحصل على درجة جامعية ، تنفيذًا لمخططه الذى وضعه وشرح رأيه فى مقال نشر سنة ١٩١٢ عنوانه « الشهادة الدراسية والرجل » جاء فيه : « إن الرجل مجموعة من القوى والمواهب والصفات ولا تدل الشهادة الرسمية إلا على أن طائفة من تلك المواهب والقوى أربعا أو خمسا فى الكثير الغالب ، قد مرنت على ما خلقت له من الوظائف والأعمال ، مرانا ربما كان مشوهامنقوصا. ولكن هب هذه القوى الأربع أو الخمس ، بلغت فى الرجل درجة عالية من النماء والمران، فماذا نعلم عن القوى والصفات الأخرى ؟ تلك القوى الكمينة التى يضيق عنها برنامج الجامعة أو المعهد ، تلك القوى اللطيفة الدقيقة التى لا يفرزها غربال الامتحان .

هل بشهادة الحقوق التى أحرزها مصطفى كامل ، علمنا سر شجاعته وإقدامه ، وأنه سيحيا عظيما محبوبا ، وأنه سينجذب إلى الحق ، وإلى الحق سيجذب أمة ، وأنه سيورى من الرماد نارا ، ويخلق من البطون قلوبا ؟ هل كانت قوته هذه مادة من مواد الامتحان ؟ .

وأخذ يضرب أمثلة أخرى فى مقاله بنابليون بونابرت ، والشيخ محمد عبده ، والفيلسوف الاجتماعى هربرت سبنسر ، على أنه كان يخشى خشية شديدة أن يكون لمقاله أثر لا يرضيه ، فاتجه إلى الشباب يخاطبه قائلا : « ادخلوا الجامعات فى الشرق والغرب يابنى مصر ، أفواجا أفواجا ، وأحرزوا شهاداتها الكبرى كل عام زرافات زرافات ، فما أقصد أن ألويكم عن الصراط المألوف ، صراط الذين يطلبون العلم من دور العلم ويأخذون الحكمة من معاهد الحكمة ، لكنى مع ذلك أناشدكم ألا تقفوا بآمالكم ولا مطامحكم عند هذه الشهادات ، وأناشدكم الله أن تنالوا الشهادة عفوا فى طريق العلم ، لا أن تنالوا العلم عفوا فى طريق طلب الشهادة » .

إن ما درسه المرحوم توفيق دياب فى مصر ولندن لقدر كبير من الدين والعلم والأدب والثقافة العامة ، تطلب منه جهدا صارما صادقا ، ولكنه حقق الهدف الذى ظل يسعى وراءه . فأصبح بعد عودته من إنجلترا سنة ١٩١٦ خطيباً بارعا ، ورجل ثقافة وفكر ، وصحفيا كبيرا وأديبا له مكانته.

كان جديرا حقًّا بأن يقول عنه الأستاذ الدكتور طه حسين يوم استقبله عضوا عاملا بالمجمع : « إن الذين سيؤرخون الآداب فيما بعد — حين يصورون حياتنا الأدبية بين الثورتين لن يستطيعوا أن ينسوا « توفيق دياب » ، لن يستطيعوا أن يهملوا اسمك بين الأسماء التى سجلت فى التاريخ الأدبى لنفسها ذكرا حسنا رائعا شائقاً ، فلك أسلوبك الحار العنيف المتدفق الذى يسبق إلى القلوب ويخلب الآذان ، والذى ينسجم فيه اللفظ مع المعنى ، والذى يصور الموسيقى اللغوية والأدبية كأروع ما تكون الموسيقى »

السادة الزملاء الأعضاء والأصدقاء :

أعلم أنى قد أطلت عليكم إطالة شديدة .. ولكن عذرى هو أن سلفى رحمه الله كان رجلا كاملا خلقاً وعلماً وثقافة ، آمن بالأخلاق الكريمة فاتخذها دستورا له طول حياته ، دعا إليها شباب مصر ومواطنيه ، خطابة وكتابة وإذاعة ، وضرب لهم دائما المثل الصالح فى السياسة والصحافة ، والبحوث الاجتماعية والمسائل القومية ، دعا إليها وبشر بها وألح فى ذلك إلحاحاً شديدًا ، لا يخشى ولا يهاب التهديد . تخلق رحمه الله بأخلاق القرآن الكريم الذى كثيرا

ما كان يتلوه فى مكتبه بعد العصر بصوته الجميل ، حتى كان بعض الناس يحسبه قارئا محترفا . وقد قرأت فى بعض الصحف أن والده المرحوم الأمير الاى موسى كان فى بعثة رسمية بالآستانة ، فقرأ فى مسجد أيا صوفيا سورة الكهف يوم الجمعة بصوت جميل جعل الناس يلتفون حوله ويعجبون به . وقد اتخذ من أخلاق القرآن الكريم مثلا يؤمن بها إيمانا قويا صادقا وتمسك بها طول حياته ، ومن هنا كانت مواقفه واضحة دائماً كل الوضوح .

سيظل الكلام عن المرحوم الأستاذ محمد توفيق دياب ناقصا ما دمنا لانعرف من آثاره حتى الآن إلا المجموعة الأولى من كتابه : « اللمحات »

لقد طلبت من ابنه كامل دياب حين سعدنى بزيارته أن يحاول جمع آثار والده، لتدرس دراسة واعية جديرة بمؤلفها ، ولتكون ذخيرة لهذا الجيل ، والأجيال القادمة فى جميع أرجاء الوطن العربى .

ولعل المجمع الموقر يدرج أسماء توفيق دياب وعباس محمود العقاد وأحمد حسن الزيات والدكتور محمد حسين هيكل والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ محمد المراغى والشيخ على عبد الرازق والشيخ أحمد إبراهيم وأحمد أمين وإبراهيم مصطفى وحامد عبد القادر وغيرهم من أعضائه السابقين فى المسابقات الأدبية التى ينظمها سنويا .

كانوا رجالا . . لهم وزنهم فى حياتنا المصرية ، دينا وعلما ، وثقافة وفكرا وأدبا ؛ وقبيح بجيل أن ينسى الأجيال التى سبقته مهما قدم العهد ، لأن تاريخنا سلسلة متصلة لأحداث لا تنفصم .

إخوانى الأساتذة الأعضاء والأصدقاء :

قبل أن أغادر مكانى لمدارس النحو العربى ممثلة كلها فى الأخوين الكريمين والأستاذين الكبيرين عباس حسن وعلى السباعى .. اسمحوا إلى أن أشكر لكم شكرا صادقاً ، صادرا من قلب فطره الله سبحانه وتعالى على الدعوة دائماً إلى الخير والعمل الصالح .

وفقكم الله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة الأستاذ عباس حسن في استقبال :

الأستاذ على السباعى

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمده على جزيل نعمائه ، وفيض برّه وتوفيقه . وأزجى لأنبيائه ورسله من آيات الإكبار والتقدير مالا أمنحه سواهم.

وأثنى أطيب الثناء على من اهتدى بهديهم ، واتخذ طريقهم شرعة ومنهاجاً ، واختار لنفسه أو تخيرته الأقدار أن ينتظم فى جند اللغة حارساً أميناً ، يملؤه يقين ثابت أن حارس اللغة حارس للدين ، وللوطن الكبير ، ومجده التالد والطريف.

وإنى لأتفقد هذا الحارس ، فأراه ماثلا فى كل عضو من أعضاء الصفوة الكريمة التى يطلقون عليها اسم : «مجمع اللغة العربية» أو «مجمع الخالدين» . ويا له اسماً صيغ من حروف معدودة ، لكنها ترمز إلى جلائل ومآثر ليست محدودة ، ولا عجب :

فكم هدتنا حروف – أنت تحصرها –
إلى منابع فضل لست تحصيها

وهذا المجمع يضم اليوم – فى غبطة وانشراح – حارسين جديدين ، لهما فى ميادين العلوم الدينية واللغوية تاريخ حافل وصحف منشرة .

فأولهما : إمام مكين ، عامر القلب بنور الإيمان ، راجح العقل بفضل العلم وصادق التجربة . سمت به مواهبه وخلائقه إلى أشرف مكانة ، وأعلى منزلة . وقد تعرفناه ، وسمعنا عنه ما قرّت به عيون المجمعيين ، فمزجوا سرور الفوز بالابتهال إلى الله أن يجعل اختياره بشير سعد وإقبال ، وأن يجعل المجمع فى غده أفضل من أمسه ، وفى قابله أيمن من حاضره .

وثانيهما : عالم فذّ ، نمّ عليه فضله ، وإن لم يعلنه لسانه ، وردّد العارفون مآثره على غير علم منه ولا مشاركة . ولقد دوّى فى مسمعى هذا الترداد منذ اليوم الأول من حياتى التدريسية ، فتشوفت لرؤيته ، وتشوقت إلى لقائه . لكن طال انتظارى ، وطاولت الأيام فى التسويف .

وكأنما كنت ومنتصف السنوات العشرينية من هذا القرن على ميعاد ، فيه تخرجت بعد انقضاء سنوات الدراسة بدار العلوم ، واقتحمت معترك الحياة مدرسًا ناشئًا ، ألقتْ به المقادير فى إحدى المدارس الابتدائية ـ بمدلولها القديم ، لامفهومها الشائع اليوم ـ ورأيتنى وسط بحر لُجِّىٍّ ، السابحون فيه قدامى سبقونى إليه عشر سنوات أو يزيد ، ولهم من طول الممارسة ، وواسع الدربة ما يكفل لهم الأمن والنجاة.

قضيت الشهر الأول فى تفهم العمل وأساليبه ورجاله ، وخضت غمراته برباطة جأْش ، وثبات قلب ، واسترشاد بما أرى ، أو أسمع ، أو أقرأ . واسترعى انتباهى خلال هذا الشهر ما يدور بين الزملاء القدامى ـ ساعة الفراغ ـ من حوار ، وجدل ، واستفسار يضرب فى نواحى اللغة ، متنِها ونحوها وصرفها ونصوصها ، ومختلف فروعها ، وما يصحب هذا من مقارعة علمية تطول ، ولا تنتهى إلى قرار حاسم مقبول ، وإنما تئول إلى اتفاق موحد يرتضونه جميعا ، هو الرجوع إلى زميل لهم فى مدرسة أخرى يستفتونه ويقنعون بفتواه ، لأنه الحجة الثّبت ، والمرجع الوثيق فيما هم فيه يختلفون ، ويرددون اسم زميلهم المرتضَى ، وأنه : « على السباعى » .

تكرر هذا فى مواقف متشابهة خلال أيام متعددة ، فكان دهشى منهم قدر إعجابى بزميلهم الذى لم أره ولم أعرفه ـ إعجاباً يشوبه التحفظ والحذر ، خشية أن يكون إجماعهم على تحكيمه وليد هوى مدخول أو رغبة شابها القصور أو التقصير ، فكنت أوثر الصمت والترقب ، انتظارا لما يسفر عنه التحكيم .

انقضى الشهر الأول على هذا الحال .

وفى مستهل الشهر الثانى فوجئت صبيحة يوم منه بحركة دائبة بين الزملاء القدامى ونشاط غير مألوف ، ومراجعة فى المعجمات ومدارسة لبعض المسائل ، بغية الوصول إلى تخطئة أو تصويب ، وانصراف إلا عن الإعداد والاستعداد . فساءلت نفسى : ما سر هذا ؟ فعيّت جوابا ، إذ لا عهد لها بمثله ولا سابقه . فتلمست الإجابة عند أحد الزملاء ، فأعارنى انتباهه برهة قصيرة قال فيها مسرعا موجزاً : إن كبير مفتشى اللغة العربية هنا ، وهو عالم جليل يرجع إليه الفضل فى شئون المدرسين والحكمُ

على أقدارهم وإنزال كلٍّ منزلته . وهو الساعة فى أحد الفصول يلازم المدرس ليرى ، ويحكم ، ويسجل . قلت : وأى شىء فى هذا ؟ أجاب : ستعرف حين يراقب عملك ، ويقول عنك ويكتب .

وما إن وصل بنا الحديث المبتور إلى هذا حتى صلصل جرسُ المدرسة مؤذنا بانتهاء الدرس ، فخرج الأستاذ كبير المفتشين متجها إلى حجرتنا ، ووراءه المدرس فى صمت وترقب . فلما استقر بهما المُقام شرع كبير المفتشين يسرد على المدرس وعلينا ما رآه من مآخذ عَدَّدها ، ويصف العلاج لتداركها وتوقِّيها . وخص مأخذين منها بالبسط وطول الكلام . أحدهما : يمتُّ بصلة وشيجة إلى بعض الأصول اللغوية المعقدة ، والآخر يضرب فى بعض شعاب النحو ومتاهاته . ونحن فى نوبة غامرة من الإصغاء ، لا يقطعها إلا تمتمات من زائف الاستحسان . ثم تلاها صوت من أحد الزملاء يستأذن فى التعقيب ، ويقول : إن هذين المأخذين كانا موضع مدارسة عميقة منذ أيام قليلة بينى وبين زميل نشهد له بالسبق فى الميادين اللغوية المختلفة ، فله فى متنها قدم ثابتة ، وفى فروعها الأخرى مكانة وتمكن ، ذلك هو : «على السباعى» وانتهت المدارسة بيننا إلى القطع بتصويب الأول ؛ وبألّا وجه لتخطئة الثانى . وهنا تحرك كبير المفتشين وحملق ، وأنصف نفسه وغيره بقوله : إن كان صحيحاً مانقلته ونسْبته إلى ذلك الشاب «على السباعى» أخذت به ، ورجعت عن رأيى إليه . لأنى أعرف لهذا الشاب كمال التحرى ، ودقة البحث ، وصدق الرغبة فى التمحيص بصبر وجلد وأناة . وكنت منصفاً حين سجلت فى صحيفته بعد طول اختبار له ، ومراجعة لأعماله : أنه من ذوى الكفاية والمقدرة ، وأن دروسه فى اللغة والأدب والبلاغة مليئة بالعمل المثمر ؛ الناطق بتلك المقدرة ، والكفاية والنشاط.

زادتنى هذه الشهادة التى سمعتها من كبير المفتشين رغبة فى رؤية الشاب . بيد أن دواعى العمل وشواغله خففت من تلك الرغبة ، حتى إذا انقضت شهور الدراسة ، وأقبلت أيام الامتحانات العامة ودُعيت للاشتراك فى تصحيحها أول مرة ، رأيت أيامها مواسم يتلاقى فيها رجال التعليم ؛ لتجديد المودة ، واستعراض

ما صادفهم خلال العام الدراسى من مهام الشئون العلمية ، وعويص مسائلها . ويتخيرون لهذا الاستعراض ساعة الفراغ والراحة التى تتخلل ساعات التصحيح .

وقد رأيتهم يوماً يتحلقون حول شاب ، فارع الطول ، ممتلىء الجسم ، وسيم الوجه ، حَسن البِزة . يتعاورونه بالأسئلة اللغوية ، ويداورونه بالحوار ، وهو يصغى فى هدوء محبب ، ثم يجيب فى بيان ناصع ، واستدلال قوى ، فلا يسعهم إلا الإذعان لما ارتأى .

سألت من هذا ؟ فقيل : «على السباعى» فاستعادت ذاكرتى ما كنت نسيته من أمره ، ودفعنى الموقف أن أتخير من الحاضرين من يعرفه ، ويعلم الكثير من شئونه ؛ وسألته : أعندك من أمر هذا المدرس خبر ؟ أجاب فى لهفة الواثق : ومن أعلم به منى ؟ فأنا ابن قريته ، درجت معه فى حاراتها وحقولها ، وصاحبته فى «كتّابها» حيث قضينا فيه سنوات التعلم الأول . ومنه خرجنا فى يوم واحد — وعمرنا لا يتجاوز الرابعة عشرة — إلى مدينة «طنطدة» المعروفة اليوم باسم طنطا ، حاضرة الغربية حيث المعهد الدينى الأزهرى ، ومن عذب مناهله ارتوينا خمس سنين دأبا ؛ أو ما يقاربها ؛ أعدّتنا للدخول فى دار العلوم ، فدخلناها بعد اجتياز امتحانها للقبول . ثم قضينا فيها خمساً أخرى خرجنا بعدها فى سنة ١٩١٧ وبيننا من الود والوئام ، وكريم الذكريات ما يكون بين الإخوان الأوفياء : غير أن الأيام فرقت بيننا فى حياتنا الجديدة ، حياة الوظيفة والتدريس ؛ فأما هو فقد نهضت به درجاته فى الامتحان النهائى للعمل بادئ بدء فى مدرسة قاهرية كبيرة هى مدرسة عبد العزيز للمعلمين ، وأما الباقون من إخوانه فلم تسعفهم درجاتهم بمثل ما أسعفته درجاته ، فانتثروا فى جَنبات الوادى ، وأقاليمه النائية ، وشتان ما بين الحالين وإن كان كلاهما جزاء عادلا لما قَدَّم صاحبه ، وثمرة لما غرس .

وما هى إلا بضع سنوات حتى تألق نجم صاحبنا فتطلعت إليه الأنظار ، وتسابقت إلى الانتفاع به معاهد التعليم ؛ فطوراً تفوز به المدارس الثانوية والمعلمات ، وطوراً تنتزعه منها معاهدُ جديدة كتجهيزية دار العلوم ، وقسم الخطابة القضائية بمدرسة الحقوق ، وآناً تستضيفه كلية اللغة

العربية بالأزهر ، وآنا آخر تجمع هيئة التدريس بدار العلوم ورجالاتها على اختياره مدرسًا للنحو والصرف ، والعروض ؛ فيتحقق لهم ما أجمعوا عليه ؛ ويتجرد لهذه المهمة ويحتمل من أعبائها ما لا يحتمله إلا أولو العزم من العلماء المخلصين الراسخين

ذلك ما سمعته عن «على» فى مراحله الأولى قبل أن نتلاقى مدرسين فى دار العلوم ، فماذا بَدَا لى حين لاقيته فيها ، متأخراً عنه بضع سنوات ، وصاحبته سنوات ؟

شاب عارم فى حجاز من الدين ، وحيوية فارهة فى رَقابة من العقل الرشيد ، وخلق كريم تنبئ عنه علائمه ، ترفعٌ فى غير كبرياء ، وتواضعٌ فى غير هوان ، ونطق فى غير هُجْر ، وصمت فى غير عِىّ ، وإقبال على الاستماع فى غير ضجر .

فتراه يُصغى للحديث بسمعه
وبقلبه ولعله أدرى به

وهو إلى هذا كله سليم دواعى الصدر ، فلا حقد ، ولا دسيسة ؛ ولا افتراء ، ولا نميمة ؛ ولا اندفاع إلا فيما ينفع الناس ، ويمنع الأذى . تلك صفاته الخلقية فى غير تزيُّد ، ولا تخيّف ، والله على ما أقول شهيد .

أما ناحيته العلمية فهو رمز لفيض العلم ، ووفرة التحصيل ، وصفاء القريحة التى يدرك بها المخبوء وراء الكلمات ، مع أمانة فى الفتيا لا يتردد معها أن يقول لا أدرى فيما لا يدريه ، متمثلا بالقول المأثور : أجرؤكم على الفُتيا أجرؤكم على النار .

وزادنى عجباً منه ، وإعجاباً به افتنانه بالعلوم والبحوث اللغوية ، ومداومته الاتصال بمراجعها ، وتخليص قواعدها من زائف الأقاويل ، وفاسد التعليلات . يتوّج هذا كله إلمام محمود بآدابها ، واستذكار لنصوصها ، واستظهار عجيب لأبلغ نص فيها ؛ وأقوم كتاب عرفه تاريخها ، وأعنى به : « القرآن الكريم » فقد استودعه ذاكرة أمينة تعبده متى شاء كاملا مصوناً . ولقد بلغ من هُيامه باللغة .وعلومها أن قرأ كثيراً من كتبها ، وفى مقدمتها أكبر كتاب فى متنها ، وهو كتاب : « لسان العرب » بأجزائه التى تُربى على العشرين ، وتربى صفحات كل جزء منها على خمسمائة ، وقد شهدت بعينى آثار قلمه فيها فلا يكاد يخلو كثيرها من تحرير ، أو تغيير ،

أو تقرير ، مع الاستناد في كل هذا إلى الحجة المؤيِّدة ، والرجوع إلى المنابع الأُولى التي اعتمد عليها مؤلف اللسان في جمع مواده من عشرات المراجع .

ذلك شأن « عليّ » في متن اللغة ، ولايقل شأنه عن هذا في النحو ، والصرف ، والمأثور من دواوين الشعراء ؛ ورسائل الكُتَّاب ، حتى بهرني ماشاهدت ، وكدت أنكره ، بلْهَ مالم أشاهد من كتب مدرسية ، ومقالات منثورة في مجلات كثيرة وآثار متفرقات .

وزاد دهشتي ما أعلمه عن « علي » أنه رب أسرة كبيرة سعيدة به ، وهو بها سعيد ؛ وأنه عضو في جماعة المعلمين ، يدافع عن حقوقهم ، ويسعى لتحقيق مطالبهم ، ويقابل الوزراء في العهود المختلفة لشرح قضيتهم ، ويلاقي في سبيل ذلك من العنت والمشقة مالا طاقة لأكثر الناس به ثم هو في خاصة نفسه وعمله نموذج يحاكي ما علمنا عليه من سوء .

فبارك الله فيه ، وفي الهيئة الموقرة التي ضمّته ، إليها وهنيئاً لهما معاً المشاركة الصادقة في حماية اللغة ؛ وتراثها ، والسهرِ على إنمائها بخير الوسائل التي لا جمود فيها ؛ ولا تهوُّر ؛ ولا إفراط ولا تفريط .

وحقق الله أملَ الناس في مجمع الخالدين ؛ ودعاءهم أن يمنحه فيضاً من العون ، ومددًا من الرعاية ؛ ويقيني أن دعاءهم سيستجاب وأملهم سيتحقق

فإني لأرجو الله حتى كأنني
أرى ــ بجميل الظن ــ ماالله صانع

والسلام عليكم ، ورحمة الله .

كلمة الأستاذ على السباعي

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله إليكم أطيب الحمد وأوفاه ، وأشكر لكم تفضلكم عليّ بالثقة التي فزت بها بعضوية مجلسكم الموقر ، وأضرع إلى الله أن يعينني فأكون مصداقاً لحسن ظنكم وأهلا لثقتكم ، وأن يقدرني على القيام بمساهمة حضراتكم في الأعمال الجليلة التي فرضتموها على أنفسكم ابتغاء

رضوان الله وخدمة للأُمة العربية بخدمة لغة القرآن الكريم ، وأُزجى الشكر جزيلا والحمد مستطاباً للسادة الذين رشحونى والذين عاونوا فى نجحى لأكون زميلا لهم فى الجهاد ، وأخص بالثناء من عهد إليه أن يستقبلنى . وأدعو الله سبحانه أن يتغمد المرحوم سلفى الأستاذ أحمد حسن الزيات بواسع رحمته وأن يجزيه أحسن الجزاء على مابذل من جهد فى النهوض بلغته وماقدم من خير عظيم لأمته .

الزيات فى إجمال : علم من علمان العرب فى الأدب الدقيق الرفيع ، يحسن التنسيق فيجود تعبيره ويهندس الكلم فى أسلوبه فيجمل تصويره ، وهو بدع من أبداع الكتاب عميق الفكرة قوى الحجة ، كان معلماً بارعاً ومثلا سائرًا ينزع إلى الكمال أبدًا فيصل بتوصيله القول وبيانه الممتع إلى الغاية غير مجهود ولا مكدود ، والزيات معروف بآثاره الفنية ومقالاته الأدبية ؛ واضح بيِّن الوضوح ناصع ظاهر النصاعة ؛ فإذا خفى أثره على بعض الأبصار القصيرة والبصائر المطموسة أنشدنا قول البوصيرى تمثلا لا تمثيلا :

واختفى منهمو على قرب مر
آه ومن شدة الظهور الخفـــاء

الزيات فى تفصيل :

١ ـ الزيات المـــؤلف

لا يقاس المؤلفون بعدد الفنون التى عالجوها أو بعدد التآليف التى نشرتها المطابع لهم وراجت فى الأسواق ، أسواق الباطل والزيف ، فقد تكون الكثرة غثاءً لا نفع فيه وزبدًا لا بقاءً له ، وتكون القلة ذهباً مصوغاً ودرًا منظوماً ينفع الناس بجده وصدقه فيبقى ما شاءَ الله له البقاءَ .

وللزيات المؤلف ثلاثة كتب كلها جديرة بالاقتناء حقيقة بالدرس والتأمل بل الوعى والحفظ لما فيها من كبير النفع ومزيد ، الفائدة ولجميعها آثار مشكورة فى تهذيب النفوس والعقول وتوجيه الدارسين، وتلقيح وتفتيح المدارك فى الجيل الحاضر .

١ ـ تاريخ الأدب العربى : وخير ما أقدِّم به هذا الكتاب قول المؤلف نفسه فى صدر طبعته الأُولى : « كتبنا هذا الكتاب على خير مارجونا من التمحيص والتلخيص وحجزنا القول عن وجهه ومراد القول رحب ومجال البحث مستفيض ، فأجملنا على رغمنا حال الأدب فى العصور الخمسة ولا سيما العصر العباسى وهو أرقى عصور الإسلام ومشرق نور الحضارة ومهبط وحى

العلم وريِّق شباب اللغة وقوفاً بالطالب عند درسه ، وترفيهاً منا عن نفسه وإجتزاءً ببسط الغرض ونهج السبيل ليمعن فيها الناشىء البار بلغته مسدد الخطى مؤيد العزيمة حتى يقف على أطوار لسانه ويكشف من أسرار بيانه ولا نكذب الله ، فقد كان لمنهاج التعليم فى هذا البلد وزهادة الناشئين فى الإفاضة أثر قوى فى هذا الإيجاز ، فكلمتنا للمتعقب إذا رأى فى هذا الموجز إجمالا أو إغفالا ألا يبسط بالنكير لسانه فإن هذا العلم فى العربية وليد ، والبحث فيه طريف جديد ، ونحن إنما كتبناه لناشئة الأدب لا لفحوله ، وألمنا فيه بأصوله لا بفصوله ، وكلمتنا للمتعلم إذا استوعاه بالدرس واستقراه بالحفظ ألا يقف فى الطلب عنده وألا يقصر عليه جهده فإنما هو عُجالة لهفان وبُلالة صديان وعلالة مشوق » .

والكتاب يضم ٥١٦ صفحة من القطع المتوسط وكله على هذا النحو من التقسيم مقالة عامة شارحة مفصلة أحوال العصر المراد درسه ، ثم نماذج مختارة صالحة للاستنباط منها والتزود بها ثم تراجم مشرقة لامعة تضىء السبيل للسائرين والمدلجين الراغبين فى الأدب والعلم والتذوق والفهم ، وكله من ألفه إلى يائه يستهوى القارىء أو الدارس فلا يتركه يفلت من يده حتى يغلبه غالب جوعاً أو نوماً . وقد قدرته الدولة قدره فمنحت المؤلف الجائزة التقديرية سنة ١٩٥٣ .

ومن آثار هذا الكتاب أن نقل مدرس الأدب إلى البحث والتمحيص والتعمق فى التفكير والدقة فى الإحكام والإحسان فى المحاكاة ونقل متعلمى الأدب من طريق حفظ الرواسم أو الرواشم (الإكليشيهات) التى يلصقونها بكل شاعر أو خطيب أو كاتب إلى الإقدار على التمييز بين الأدباء فى عصور تاريخ الأدب المختلفة وإلى تذوق الأدب ودرسه وفهمه فى لذة ومتعة ، ولا ريب بعد ذلك كله أن كان الأديب الزيات مغيِّرًا ومجددًا وناهضاً مُسعفاً مسعدًا .

٢ ـ دفاع عن البلاغة : فى هذا الكتاب الصغير الحجم إذ تبلغ صفحاته ١٦٤ من القطع الصغير الكثير النفع صور لنا البلاغة فى قواعدها وأصولها المقررة أجمل تصوير وضم ما يعرفه عن بلغاء فرنسا إلى مايعرفه عن بلاغى العرب ، فجاء كتابه مزيجاً سائغاً شرابه حدد فيه التعاريف والرسوم ووضح الغوامض والمبهمات وألقى على

المتشابهات ضوءً فصارت من المحكمات وأستسمحكم ، فأستعير بعض فقرات أُدلل بها على قيمة الكتاب ونفاسته . كتب وقد دعا طالب البلاغة الموهوب أن يدرس اللغة والطبيعة والنفس ، فقال عن الطبيعة ، إنها كتاب الفنان الجامع ومصوّرُه العجيب منها موضوعه ومادته وعنها اقتباسه ووحيه وفيها دليله ومثاله وبها أخيلته وصوره ، فيجب أن يطيل فيها النظر ويشغل بها الفكر ويرجع فى كل ما يعمل لأُصولها الثابتة وقواعدها المقررة ليتقى الضلال والخطأ ويأمن الإغراق والتكلف . هذا الكتاب المحيط المعجز الذى ألفته يد القدرة قد تجمعت على هوامش متنه الهائل عقول بنى آدم منذ استبصروا يحاورون كشف أسراره وفهم حقائقه فوفقوا بالاستقراء والاستنباط إلى ابتكار علوم وابتداع فنون ، تخصص فى هذا أقوام وفى تلك أقوام . والأديب وحده هو الذى يجب عليه أن يشارك فى كل علم ويلم بكل فن، لأنه عرضة لأن يكتب فى كل أولئك ولو على سبيل التصوير والتشبيه ، فإذا لم يكن واقفاً على مصطلحات الفنون والعلوم عارفا بمختلف الحدود والرسوم قدح ذلك فى ثقافته وغض من كفايته ، وأما دراسته للنفس : فلأنها الينبوع الثرّ لما يذخر به الشعر والنثر من مختلف الغرائز والعواطف والأفكار والأحاسيس ومعرفة الينبوع فى مصدره وجوهره ومداه شرط فى معرفة ما يصدر عنه على حقيقته وطبيعته وأثره . وإذا كان من خصائص الكتاب أن يخلق أشخاصا للقصص ويمثل أهواء على المسرح ويعالج أخلاقا فى المجتمع ويحلل عقدًا فى الناس فمن غير المعقول أن يحسن شيئاً من أولئك إذا لم يكن عليما بأسرار القلوب وأهواء النفوس وما ينشأ من التعارض والتصادم بين الغرائز والأخلاق وبين العواطف والمنافع ، وإذا كان مدار البلاغة على مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال فإن إدراك الفروق الدقيقة بين الحالات المختلفة للمخاطب وصياغة الكلام على قوالب المقتضيات المناسبة للخطاب وتصوير الأخلاق على نحو يغرى بالخير ويحذر من الشر والقدرة على خلق الجمال فى الأسلوب أو التعبير عما يخلقه الجمال فينا من العواطف ، كل أولئك يستلزم دراسة خاصة لعلم النفس وعلم الأخلاق وعلم الجمال وقد أفاض المؤلف فى الذوق والأسلوب شرحا وتوضيحا وتمثيلا بشيوخ الكتاب

فى العصر الحاضر وبشبابهم بمالا استزادة بعده لمؤلف ، وختم الكتاب بقوله :

« من أجل ذلك كثر التجنى على البلغاء واشتد الهجوم على البلاغة ومن أجل ذلك رفعنا هذه القضية وكتبنا هذا الدفاع وهو دفاع نعتقد أن فيه الحرارة والإخلاص وفيه الصراحة والجد فإن أعوزه بعد ذلك وثاقة الحجة وأصالة الرأى وإصابة الغرض فهو بلاغ لمن يقدرون على ذلك . بلاغ إلى شيوخ الأزهر فهم حماة الدين وملاذ الفصحى ، إلى رجال كلية الآداب فهم معقد الرجاء فى تصحيح المعرفة وتوجيه الثقافة ، وإلى شباب دار العلوم فهم مناط الثقة فى إنعاش الأدب وإنهاض البلاغة ، ثم إلى أعضاء مجمع اللغة فهم عماد النهضة فى تهذيب النحو وتجديد اللغة ، والله من ورائهم يُعلن الحق ويثبت الصدق ويهدى السبيل ، وهو سبحانه وتعالى حسبنا ونعم الوكيل » .

٣ ـ أما كتابه « وحى الرسالة » فهو مجموعة مقالات صدرت فى عدة أعوام فى مجلة الرسالة ، ومجلة الأزهر التى كان مديراً لها ورئيس تحريرها ،وفيها آيات بينات، وخوالد باقيات ، تبرهن بالبراهين الساطعة والأدلة القاطعة على أن الزيات هو الكاتب المبدع المجدد فى هذا العصر .

٢ ـ الزيات المترجم

يعده الواقفون على أسرار اللغة العربية وإحدى اللغات الحية أنه خير مثال للمترجمين ، وفى ترجمته للقصتين الخالدتين « آلام فارتر » و « رفائيل » برهان ساطع ودليل قاطع على بلوغه شأوا بعيداً فى الترجمة وقد تلقفهما الشيوخ والشبان فى سائر البلاد العربية بشوق وتلهف واستمتعوا بقراءتهما والإفادة منهما بلذة وتذوق . ويمتعنا أن نقرأ كلام عميد الأدباء فى الجيل الحاضر : الدكتور طه حسين فى مقدمته لترجمة (آلام فارتر) ، والترجمة فى الفن والأدب ليست وضع لفظ عربى موضع لفظ أجنبى ؛ إذ الألفاظ شديدة القصور عن وصف الشعور فى اللغة الطبيعية فكيف بها فى لغة أخرى ، أعنى الترجمة الفنية والأدبية عبارة عن عملين مختلفين : كلاهما صعب عسير : الأول : أن يشعر المترجم بما شعر به المؤلف وأن تأخذ حواسه وملكاته من التأثر والانفعال نفس الصورة التى أخذتها

حواس المؤلف وملكاته إن صح هذا التعبير.

والثانى : أن يحاول المترجم الإعراب عن هذه الصورة والإفصاح عن دقائقها وخفاياها بأشد الألفاظ تمثيلالها وأوضحها دلالة عليها ، وقد وفى الأستاذ حق الترجمة بما لا مطمع بعده لمستزيد .

وقد أحسنت الدولة تقدير مكانته الأدبية فى سنة ١٩٦٢ بمنحه جائزة الدولة التقديرية على أنه كاتب فذّ جيّد الأسلوب ، شديد الأسر ، جال بقلمه فى ميادين كثيرة من ميادين الأدب والفكر والإصلاح ، ورحم الله الزيات وأعاننى على القيام ببعض ماكان يقوم به ، وأشكر المجمع الكريم والزملاء على استقبالنا ، وأشكر للحاضرين حضورهم وتشريفهم .

والسلام عليكم ، ورحمة الله .

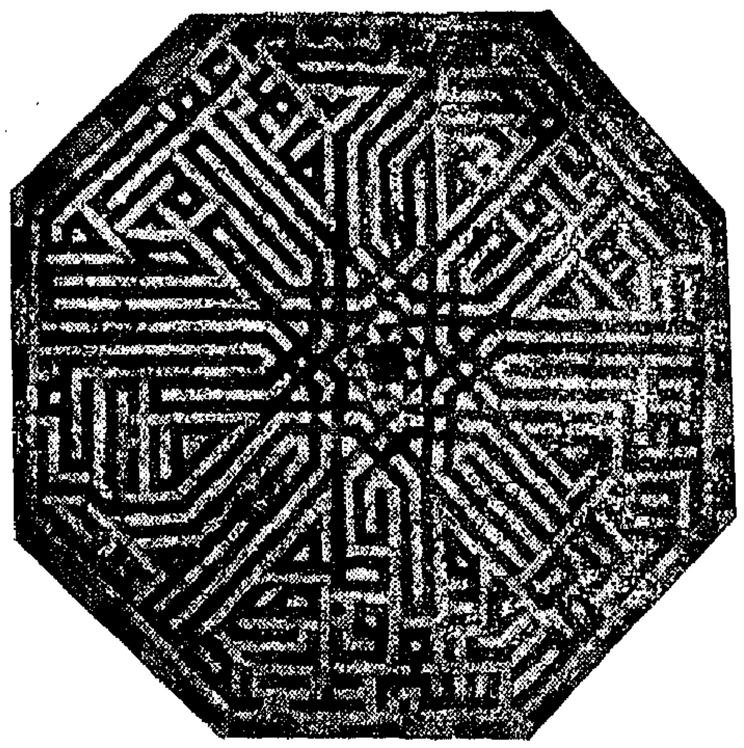

في الساعة الحادية عشرة من صباح الخميس اول صفر سنة ١٣٩٢ هـ الوافق ١٦ من مارس سنة ١٩٧٢ م أقام المجمع حفل تأبين للمغفور له الدكتور محمد عوض محمد عضو المجمع الذى استأثرت به رحمة الله في ١٠ من فبراير سنة ١٩٧٢ .

وفيما يلى ما ألقى فى الحفل من كلمات :

كلمة الأستاذ زكى المهندس فى تأبين المرحوم :

الدكتور محمد عوض محمد

سيداتى وسادتى :

إنه ليحزن المجمع أشد الحزن أن نجتمع اليوم لتأبين زميل كريم وعالم جليل ، اختطفه الموت منا فجأة ، وعلى غير انتظار ، وخلّف فى أنفسنا أشد الحزن وأعمق الأسى ، ولقد تركنا الفقيد قبل وفاته بثلاثة أيام وهو على أتم ما يكون صحة ونشاطاً وحيوية ، ولكن وفاته الفجائية كانت صدمة هزّت أعصابنا جميعاً ، ونحن فى غمرة الحزن والأسى ننسى أن ليس للموت مواعيد ، وليس للأجل مواقيت ، وننسى أن كل حىّ إلى فناء ، وأن كل نفس ذائقة الموت ، وأن لكل إنسان أجلا محتوماً ، وقَدرًا مقدورًا ، « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولايستقدمون ».

حقًّا إن فجيعتنا فى « عوض » عميقة ، وآلامها قاسية ، وخسارتنا فيه خسارة فادحة ، فقد فقدنا فيه ثروة علمية ضخمة ليس من السهل أن تعوّض ، ولكن ماحيلتنا فى قضاء الله .

إننا نؤمن بأن كل نفس ذائقة الموت ، وليس لنا من حيلة حيال الموت سوى الصبر والإيمان والاستسلام لقضاء الله الذى لارادّ لقضائه ، ولا معقِّب لحكمه .

إننا إذ نبكى الفقيد اليوم لانبكى فيه عضوًا مجمعيًّا ممتازًا فحسب ، وإنما نبكى فيه عالماً جليلا ، تجاوزت كفايتُه العلميةُ حدودَ وطنه ، فأصبح عالماً عالميًّا ، له فى المحافل الدولية كلمة مسموعة ، ومكانة مرموقة ، ولقد كان

الفقيد – إلى علمه الغزير ، وثقافته العريضة الواسعة ، وتجاربه الكثيرة المتنوعة – كان إلى هذا كلّه رجلاً طيّبَ النفس نقيَّ الضمير ، عفَّ اللسان ، شديدَ الاعتزاز بكرامته ، لطيفَ المحضر. لقد عاشرناه فى المجمع أكثر من عشر سنوات فما أذكر أننى وجدتُه يومًا غاضبًا من أحد ، أو ساخطًا على أحد ، بل كان محبًّا للجميع ، محبوبًا ومحترماً من الجميع ، رحم الله الفقيد وأسكنه فسيح جناته .

سيداتى وسادتى :

لقد كان السيد رئيس المجمع الدكتور طه حسين حريصاً على أن يشاركنا فى تأبين صديقه ورفيق صباه ، ولكن طارئاً صحيًّا اضطره إلى الاعتكاف والاعتذار باسم المجمع أبعث إليه بأطيب أمانينا له بالشفاء العاجل .

أما الآن أيتها السيدات والسادة فيتولى تأبين الفقيد – نيابة عن المجمع – الزميل الكريم الدكتور محمد أحمد سليمان ، ويليه الدكتور سليمان حزين ليلقى كلمة الجغرافيين ، ويليهما السيد مالك ابن الفقيد ليلقى كلمة الأسرة ، فليتفضل ، الدكتور سليمان ، وشكرًا .

كلمة الدكتور محمد أحمد سليمان

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً »

ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين » .

« صدق الله العظيم »

الأستاذ الرئيس :

حضرات السادة والسيدات :

سأل سائل لم اختارك المجمع لتنوب ، عنه فى رثاء العالم الجغرافى والأديب اللغوى المرحوم الأستاذ الدكتور محمد ابن عوض بن محمد ، أو كما يقول المصريون : محمد عوض محمد ؟ قلت – وقد أسأت الظن بالسؤال أن يكون إنكارًا – : « ليس بينه وبينى صلة من الصلات التى تسأل عنها ولا آصرة من تلك التى تتصورها » .

فعوض شخصية عالمية فذة ، والعبد الفقير لايكاد يعرفه جيرانه ومواطنوه .

وعوض عالم جغرافى بما درس وحصل من درجات علمية ، وما بينى وبين هذا العلم الخطير إلا تناكر أوتنافر أغلق فى وجهى أبواب القسم الأدبى من التعليم الثانوى وحشرنى فى زمرة طلاب ماسموه بالقسم العلمى .

وعوض أديب كبير وكاتب ناقد ، له قلم مرموق ، وأسلوب رشيق ، لا يخلو من فكاهة ، وإن كانت فكاهته من ذلك الطراز الهادىء الرزين ، وله فى كتابته خيال مبدع وقصص ممتع وأنا عاطل من كل ذلك والحمد لله .

وعوض شاعر مطبوع — وإن لم يذكر الناس اسمه بين الشعراء — ولكنه من أقدر بنى زمانه على النظم ومن أعلمهم بأوزان الشعر ، وغاية صلتى بالشعر أننى حفظت منه يوما عددا من الأبيات ثم نسيتها .

وعوض عالم لغوى خبير بالنحو والصرف، متمكن من قواعد الفصحى ، وكثير غيرها من اللغات ، وأحسبنى أعجز حتى عن حصر هذه اللغات وذكر أسمائها .

ومع ذلك كله فقد كتب علىّ أن أنوب اليوم عن مجمع الخالدين فى تأبين علم من أعلامه بل هو ركن من أركانه .

ولقد قبلت ما كُتب علىّ عن رضاً وطواعية ، ابتغاءً لشرف مصاحبة عوض بعد مماته ولو قد حرمت هذا الشرف فى حياته .

وأشهد أننى أعجبت بعوض منذ تعرفت إليه فى منزل أخى وأستاذى عبد الوهاب عزام رضى الله عنه وأرضاه — وقد أعجبنى منه يومئذ ، عذوبة حديثه ، وتنوعُ معرفته وعفةُ لسانه ، ووضوحُ ، شخصيته وقوة حجته ، ونصاعة بيانه .

ثم تتلمذت لعوض حين دعانى لزمالته فى التدريس بمعهد السودان ، وحدد لى موضوع الدرس عن « فئات الدم وسلالات البشر » فلما أردت الاعتذار بحجة بعد الموضوع عن تخصصى ، ألزمنى القبول فى منطق سهل وبمثال حاضر ؛ قال رحمه الله ما معناه : « وهل يعجز المدرس أو الدارس عن البحث والتعليم — ألا تُرانى وقد انتسبت للجغرافية أكتب فى الشعر والأدب وأبحث فى الاجتماع والسياسة وأدرس سلالات البشر وطوائف الناس » .

ثم أكبرت عوضاً حين دعانى صديق لشهود اجتماع فى إحدى الجمعيات الاجتماعية وكان عوض رئيساً للاجتماع ، وتناوب

الحضور الكلام فى ترتيب ، وكان حديثهم كأشخاصهم مزوقا منمقاً حلو الملافظ عذب النغمات ولكنه يدور فى فراغ ، وقد خيل إلىّ يومئذ أن عوضا كان بينهم نشازا فى مظهره نشازًا فى تفكيره نشازا فى حديثه ، وأسأت بهم الظن ، فرأيتهم ينفسون على بعض الأحزاب والجمعيات الدينية كثرة الأتباع وقوة الأنصار — وكان ذلك قبيل حل الأحزاب أو بعد ذلك بقليل — وكان بين الحضور عدد من الوزراء وكثير من المستوزرين ، فلما جاء دورى للكلام اعتذرت بأننى لست عضوا فى الجماعة ولا أنتوى أن أشرف بطلب العضوية ، ولكنهم أصروا لأقولن شيئاً ، فأغلظت لهم القول وتلك إحدى سيئاتى — وكثير ماهن — وقلت لهم : « لم تريدون الناس أن يتبعوكم وأنتم لا تدعونهم لمغنم دنيوى ولا لثواب أخروى؟ » وقبل أن أتلقى ما كنت أستحق من لوم أو تأنيب كنت أراه واضح المعالم فى وجوه بعض الأعضاء ، أنقذنى عوض بأن شرح فكرتى وأوضح مقصدى فى أسلوب رائق رائع ، دعا فيه أعضاء الجمعية أن يجعلوا لهم غاية وهدفا إن أرادوا لهم أتباعاً وأنصاراً .

ثم أحببت عوضاً حين زاملته فى مجمع الخالدين فوجدته بحرًا زاخراً بالمعارف ، وقاموساً محيطاً بالعلوم ، وكنزا مترعا بالآداب والفنون — تنوعت معارفه حتى كادت أن تحيط بعلوم الأولين ، وتعددت مجالاته ، حتى سمت على كل الآخرين .

ثم ودعت عوضاً حين صليت عليه أربع تكبيرات ودعوت الله له بالمغفرة والرضوان ودعوت لنفسى معه أن لا يحرمنا الله أجره ولا يفتنا بعده .

واليوم وقد كتب علىّ لأرثينّه لا أجد ما أبدأ به خيرًا من أن أدعو الله الكريم أن يتغمده برحمته ورضوانه ، وأن ينزله منازل الصديقين والشهداء والصالحين ، وأن يلهمنى فى رثائه سبيل التوفيق ويجنبنى مزالق القصور والتقصير .

حدثنا الدكتور عوض رحمه الله عن نفسه فقال : « نشأت فى مدينة المنصورة ورأيت النور فى شهر آزار « مارس » من العام الخامس والتسعين بعد المائة الثامنة والألف من مولد المسيح عليه السلام ، فى

عائلة متوسطة الحال ، ولكن على شيء كثير من العلم ، وخصوصاً العلم الدينى ، واتجه الفكر إلى أنى ربما دخلت الأزهر الشريف ، وياليت هذا قدتم لأنه أقرب إلى هوايتى ، ولكن أفرادا من العائلة أكثر قوة فى الرأى صمموا على أن أذهب إلى مدرسة المنصورة الابتدائية وأتم الدراسة التقليدية فى الثانوى ثم العالى .

وبعد أن تخرجت فى مدرسة المعلمين العليا سنة عشرين وتسعمائة وألف، ذهبت إلى إنكلترا ، وكان فى ذلك شيءٌ من التسامح لأنى كنت قد اعتقلت وقضيت فى الاعتقال أربع سنين ، فلما تسامحوا وأرسلونى قضيت فى إنكلترا ست سنوات أدرس الجغرافية ، وهكذا ، التقى علم الجغرافيا بهوايتى الأدبية » .

وقد بدأت ميول الدكتور عوض للأدب وهو بعد طفل صغير فى المدرسة الابتدائية، وبدأ ينظم الشعر وهو طالب للكفاءة فى السنة الثانية الثانوية ونمت فيه هذه النزعة وترعرعت عند دخوله مدرسة المعلمين، ثم طغت هذه الميول على كا ماسواها حين اعتقله الإنكليز ، فقد كان عوض يقود المظاهرات مطالباً بحق البلاد فى الاستقلال ـ وقد نظم فى تلك الأيام قصيدة يحُث بها الشباب على الأخذ بأسباب القوة ، ولقد ظلت تلك القصيدة محفوظة فى أذهان من سمعوها تتردد فى أجواء المظاهرات حتى صارت مجلة الرسالة فنشرت تحت عنوان « من عيون الشعر » ؛ أقرأ عليكم بعضا من أبياتها لتروا منزلة عوض من الشعر منذ بدءِ شبابه . قال رحمه الله :

أتحنو عليك قلوبُ الورى
إذا دمعُ عينيك يوماً جرى

وهل ترحم الحَملَ المستضامَ
ذئابُ الفلا أو أُسود الشرى

فكن يابسَ العود صُلب القناة
قوى المراس متين العرى

إذا كنت ترجو كبار الأُمور
فأعدد لها همة أكبرا

ولعلنى إن أردت التعليق على هذه الأبيات لا أجد خيرًا مما قاله طه حسين : « إن شعر هذا الجغرافى لا تنقصه الروعة » .

وبقى عوض فى الاعتقال أربع سنوات ، وقد كان همه فى تلك الأيام أن يتقن اللغات وبخاصة اللغة الألمانية ، ولم تنقض تلك

السنوات الأربع بين القضبان حتى كان عوض قد أتقن اللغة الألمانية كلاما وقراءة وأدبًا وكذلك اللغة التركية ثم اللغة الفارسية فضلاً عن اللغات العربية والإنكليزية والفرنسية التى كان قد أتقنها فى دراسته التقليدية .

ولما سافر عوض إلى إنكلترا التحق بجامعة ليفربول فحصل منها على البكالوريوس مع مرتبة الشرف فى الجغرافية سنة أربع وعشرين وتسعمائة وألف ثم على درجة الماجستير سنة ست وعشرين من نفس الجامعة ، وفى نفس العام حصل على الدكتوراة من جامعة لندن وعاد بعد ست سنوات فالتحق بالجامعة المصرية مدرسًا للجغرافية .

ويحدثنا عوض عن هذه الفترة من حياته فيقول رحمه الله : « عندما التحقت بالجامعة المصرية كنت وزميل معى نشتغل بالجغرافية ، فكان عبءُ التدريس كبيرًا فتراجَعَت عنى فى هذه الفترة هوايةُ الأدب قليلا ثم عاودتنى هواية الأدب حين تركت كلية الآداب لسبب لا داعى لذكره، واشتغلت فى مدرسة التجارة العليا ، وفى ذلك الوقت نشأت مجلة الرسالة وأصبحتُ عضوًا فى مجلس إدارتها وتحريرها ؛ فاضطررت لأن أطلق العنان مرة أخرى لهوايتى الأدبية » .

وقد تدرج عوض فى مناصب هيئة التدريس أستاذًا مساعدا فأستاذًا ، ثم عين مديرًا لمعهد الدراسات السودانية (الإفريقية بعد ذلك) ورأس جامعة الإسكندرية من سنة خمسين إلى سنة أربع وخمسين حين اختير عضوا بالمجلس ، التنفيذى لليونسكو لمدة أربع سنوات ثم اختير نائبا للرئيس ثم رئيساً للمجلس — وشغل عوض قبل ذلك وبعد ذلك وظائف كثيرة مختلفة ، فهو رقيبٌ على المطبوعات آنًا ، ومستشار للوفد المصرى فى المؤتمر الأول لهيئة الأمم المتحدة حينًا ، ومدير لقسم العلوم الاجتماعية بهيئة الأمم الذى مهد لقيام هيئة اليونسكو ، ومستشارٌ لحكومة السودان فى مشكلة إقرار القبائل الرحل ، وعضوٌ بارز فى لجنة منع التفرقة العنصرية ومحاربة الرقيق ، إلى غير ذلك كثير من المناصب التى رفع عوض من شأنها بشخصيته القوية ، وعلمه الغزير ، وبيانه الفصيح ، ومنطقه السليم ، وإيمانه القوى ، وخلقه المتين .

أما عن إنتاجه العلمى كما تقول لائحة الجامعات فإنه أغزر من أن يحصر ، وأكثر من أن يعد ؛ فهو تارة يترجم روائع الآداب الألمانية لجوته مثل فاوست وهرمن ودروتيه أو القصص الإنجليزية مثل الملك جون والملك هنرى ، وهاملت لشكسبير ، أو الكتب الأدبية مثل قواعد النقد الأدبى للاسل آبْر كرمبى وابن فرجينيا لأوين وِسْتَر .

وتارة يؤلف فى الجغرافيا مؤلفات عالمية الشهرة ، مثل « نهر النيل » ، « وسكان هذا الكوكب » ، و « السودان الشمالى » ، « وإفريقيا : شعوبها وأجناسها » ، و « الاستعمار » و « الامبريالية » إلى غير ذلك .

ولم ينقطع يوما عن الكتابة فى الأدب : مقالات متنوعة الموضوعات متعددة الصور والأشكال بعضها قصص وبعضها من قبيل الأساطير والبعض أحاديث أو مقالات وبعضها يعالج موضوعات ذات صفة عامة بأسلوب خيالى بديع ترمز إلى معنى لايظهر على السطح ولكن المعنى يسهل إدراكه من باطن الحديث . وقد اشتهر عوض بسبب تلك المقالات بأنه من أكثر الكتاب دراية بفكرة القصة الأدبية حتى لقد ندبه سلفى العظيم الأستاذ الدكتور شفيق غربال ليلقى محاضرات على طلاب معهد الدراسات العربية يوم كان مديرا له عن « فن المقالة الأدبية » .

نشأ الدكتور عوض فى عصر تتضارب فيه الآراء وتتجاذب الأمة العربية فيه تياراتٌ متصارعة أقواها ذلك التيار الأهوج الجارف الذى يدعوها للانفصال عن أصولها والتنصل من عقيدتها والسير فى ركاب الصليبيين باسم المدنية والحضارة حينًا ، وباسم العلم والمعرفة أحياناً ، وباسم التقدم والرقى أحيانا أخر ، وبغير ذلك من الأسماء الرنانة الى لا تكاد تخفى وراءها حقيقة الدعوة وشخصية الدعاة المضللين .

وانساق فى ذلك التيار الكثرةُ الكاثرة من الشباب المتعلم ، وبخاصة أولئك الذين اصطفاهم المستعمر ليدرسوا العلوم الحديثة فى بلاده أو بلاد غيره من الأوربيين والأمريكيين — واشتد ساعد دعاة الهدم والهزيمة بسقوط الخلافة الإسلامية فى بنى عثمان وظهور الدعوات القومية والوطنية التى حملت فى ظاهرها الخير والبركة وفى

باطنها العبودية والعذاب وأصبح الشباب المتعلم آنئذ أزواجًا ثلاثة .

أكثرهم الغافلون الذين لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك الذين انساقوا وراء بهرج الملاهى والملذات فتركوا العلم الذى بعثوا لدراسته وغرقوا فى حمأة اللهو واللعب باسم الفن أو الثقافة ، وعادوا يزينون لقومهم الغواية ويدعونهم إلى الرذيلة ، وينهونهم عن الجد ، ويحيدون بهم عن الطريق المستقيم . وأنكرهم الخادعون المخدوعون الذين زعموا أن المدنية الغربية كلٌّ لا يتجزأ والرقىّ الأوربى وحدة لا يمكن إلا أن تؤخذ على ماهى عليه خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ما يحمد منها وما يعاب ، وإلى أولئك وهؤلاء يشير شوقى رحمه الله فى قصيدته الشهيرة التى حيا بها الأزهر حين يقول :

لا تحذ حذو عصابةٍ مفتونةٍ
يجدون كل قديم شىء منكرا

ولو استطاعوا فى المجامع أنكروا
من مات من آبائهم أو عمرا

من كل ماض فى القديم وهدمه
وإذا تقدم للبناية قصرا

وأتى الحضارةَ بالصناعةِ رثةً
والعلم نزرًا والبيان مثرثرا

وكان أقل أولئك الشباب المتعلم عددًا وأكثرهم رشدًا أولئك الذين لم تبهرهم زخارف المدنية الحديثة ولم يجرفهم تيارها القوى الدافع ، وبقيت لهم عيون تبصر وعقول تفكر وضمائر وبصائر تهديهم إلى الطريق المستقيم الذى قام عليه مجدهم السابق والذى بغيره لن تقوم لهم قائمة ، ولن يعلولهم ذكر ، ولن يصلح لهم حال . كان الدكتور عوض من أولئك المستنيرين الذين كشف الله عن بصائرهم الغشاوة ورفع عن أبصارهم الضباب وأرشدهم إلى طريق الحق والصواب ، وها هو فى معقل المدنية الغربية وحصنها الحصين ينصح قومه ويخبرهم عن الحضارة الحديثة أشر هى أم خير وهل تسير بهم إلى السعادة والعافية أم تجرهم إلى الويل والشقاء .

ولكن عوضا لا يريد أن ينسب النصح لنفسه لئلا يزهد فيه قومه ، بل يقدمه لهم على لسان امرأة من بنات الإنكليز خلع عليها عوض صفات الحسن والجمال وألبسها لباس الصراحة والسمو والوقار ،

تمتاز بعقل راجح ، وخلق متين ، وثقافة واسعة ، وبصيرة نافذة ، وقد أراد لها الدكتور عوض أن تلتقى بشاب مصرى قضى فى بلادها خمسة أعوام نال فيها من النجاح ماتهفو له النفوس ، وأحرز ماشاء له جده من ألقاب ومراتب وطبع لنفسه بطاقة تحمل تحت اسمه الأجنبى السحنة ، سطوراً مرصوصة من الحروف الأبجدية تفهم القادرين على فك رموزها أن صاحب هذه البطاقة فتى قلما وفقت مصر لإيفاد مثله إلى بلاد الإنكليز .

وقد أجرى عوض الحوار بين المصرى المخدوع والإنكليزية الرشيدة على صورة رائعة متقنة حتى ليخيل للقارىء صدق القصة بسبب صدق الحوار .

والحقيقة أننى لست أدرى إن كانت القصة واقعية رآها محمد عوض أم خيالية رسمها قلمه البارع بهذه الصورة التى أظهرت بطله المصرى العصرى كالكائن المسوخ أمام فتاته المثقفة حين أراد هو أن يدعوها إلى بعض المسارح وأرادت هى أن تسمع منه أو تتحدث إليه عن آداب الشرق وعلومه ، عن حكمة الصين ، وفلسفة الهند ، وأدب الفرس ، ومتصوفى الإسلام ، ونُسّاك النصرانية ، وأنبياء بنى إسرائيل ، بعد إذ هى قد وسعت كتب الشرق دراسة وعلماً .

وقد بدأت سارا — وكان هذا اسمها أو الاسم الذى اختاره لها الدكتور عوض — الحوار مدافعة عن تهمة وجهت إليها أنها تعنى أشد العناية بكتب القدماء بقدر ما أهملت كتب المحدّثين . قالت : « ليس لى مفر من أن أعترف بصحة شطر غير قليل من هذه التهمة ، ولكن حدثونى بالله ماذا أصنع بهؤلاء المحدثين وبهذه الآلاف المتتابعة ، والجحافل المحتشدة من الرسائل والقصص ، والروايات ، والبحوث » والصحف والسير والمذكرات والمشاهدات ، التى تغرقنا بها المطابع فى كل موسم ؟ أليس من التوفيق السماوى أن يستطيع المرءُ أن يرفع رأسه وسط هذا الطوفان الداهم ، دون أن يدركه الغرق ، أو يوارى فى تراب تلك المقذوفات ؟ لقد سهلت المطابع على كل صعلوك الفكر ، تافه القلب ، حقير الرأى ، أن يمطر الناس بضاعته الغثة محلاة مزوقة خداعة ختارة .. وامتلأ العالم بهذه الترهات ، حتى خفى المعدن الثمين وسط الأكوام الهائلة

من الزيف والتفاهة ، وحالت كثرة الشوك دون العثور على الزهر . فمن لى – ومن لكم – ومن يأخذ بأيدينا وسط هذا الحشد العظيم من المحار ، ويرشدنا إلى ماقد يكون فيه من الدر الثمين ؟

« أما كتب القدماء فليس هذا شأنها ، فإن يد الزمان قد مرت عليها وهى يد قاسية جبارة فأفنت الغثَّ الضعيف ، والعرض الزائل ، وتركت لنا الجوهرَ الغالىَ ، واللؤلؤَ الثمين . كان الناس فيما مضى يكتبون للسادة وللكبراء ، فكانوا يبدعون ويتقنون ويعملون فى تمهل وتؤدة ، أما اليوم فإنهم يكتبون على عجل ، للطغام والعوام ، يبتغون عرض الدنيا ، ولقد نالوا لعمرى من ذلك حظًّا وافرًا ، كما نالوا تقدير الطغام ، ولكنى أربأُ بتفسى وبكم أن نمنحهم من حبنا نحن ، ومن إعجابنا وتقديرنا ، فهو أسمى من أن يبذل لأمثال هؤلاء » .

سألت سارا بطلها المصرى الفذ الفائز أبدًا ، المتفوق أبدًا : « أظنك الآن فى شوق شديد لأن تعود إلى بلادك وإلى ارتداء ثيابك القومية ذات الجمال والانسجام فسارع المصرى العصرى إلى التملص من هذا العار الذى كاد أن يلحقه ، مؤكدًا أن تاريخنا العصرى يقضى علينا أن نتزيا بالزى الأوربى جريًا وراء الخطة التى نسير فيها من التمسك بكل ماهو أوربى حديث ، فإذا بالفتاة الذكية تحاول أن تعيده إلى رشده ، فتقول : « ألست ترى أن فى هذا مسخًا أى مسخ ؟ كيف تستطيعون أن تستحيلوا غربيين أوروبيين ودماؤكم التى تجرى فى عروقكم شرقية ، والسماءُ التى تظلكم سماءُ المشرق وشمس المشرق ؟ وكيف تضحون بالزى القومى البديع ، وتنصرفون عنه إلى تقليد هذه الأزياء الغربية التى لانرى نحن فيها سوى الدمامة وفقر الذوق ؟ » تابعت سارا حديثها فقالت : « إن الإصلاح الذى لا يشتمل إلا على ألفاظ تقال ومشروعات ترسم شغل لا ينفع ، وعبث لا يجدى ، وإنما يجب على رجالكم أن يسنوا السنة ، ويضربوا المثل ، ويكونوا قدوة للناس ... إن حركة المسخ هذه يجب أن تقفوها بعنف . ويجب أن يظل الشرق شرقا فى مظهره وفى روحه » .

واستمر عوض ينطق الفتاة الأوربية رشدا ، فهى تسأل فتاها مستنكرة : لم

اتخذ لنفسه اسم « هنرى » الأوربى ثم تزيد فى سخريتها فتتساءل : هل اتخذ هذا الاسم وهو فى انكلترا لكى يسهل على الناس مخاطبتهُ به فلما أجابها متحذلقًا : بأن اسم هنرى واسع الانتشار فى مصر قالت : « هذا ما كنت أخشاه . إن عملية المسخ لم تترك حتى الأسماء » .

ما أحوجكم ياصديقى إلى حركة عنيفة كأنها الزلزلة الهائلة ، لكى توقظ الراقدين والغافلين وتريهم عظمة الشرق وجمال الشرق وضرورة الرجوع إلى الأصل ، والبناء على الأساس . . .

إن الأمة التى تغفل ماضيها وتتناساه ، ليس لها فى الحياة أمل . وهل تستطيع الشجرة أن تحيا إذا اجتثت أصولها ، أو أن تقوم بجذور مستعارة وأصول غريبة ، إن الدوحة قد تعيش وتحيا بعد أن تفقد الورق والأغصان ، أما أن تقطع الأصول فقضاءٌ عليها بالهلاك » .

واستمر عوض فى حواره الساخر بين المصرى العصرى الذى مازال مخدوعًا بما أعطانا الغرب من عناصر الحضارة ولوازم المدنية : سككٍ من الحديد ، وقاطراتٍ وسيارات وطائرات ومخترعات عديدة، فيتلقى من فتاته هذا الرد المفحم الرشيد » .

قالت : « أجل ، وقد عجزت كل هذه المبتكرات الهائلة ، والمخترعات المدهشة أن تصلح روحًا أو تطهر قلبًا ، أو تملأ نفسا قاسية بالرحمة ، أو أن تغير — أو تستر — الجبلَّة الوحشية ، أو تقلم أظافر البهيمية . وقد أصبحنا برغم — بل بسبب — هذه الابتكارات أضرى من الضوارى ، وأعق من الخيانة . وآثم من الإثم » .

« ما أجدركم أيها المشرقيون أن تتئدوا فى خطاكم حين تسيرون نحو حضارتنا ، وأن تتريثوا قبل أن تغترفوا من هذه الحياض الغربية ، فلقد يكون الذى تخسرونه أجل وأجمل مما تكسبون ».

وهنا رأى المهندس المصرى العصرى أن الفرصة قد سنحت لكى يتحدث عن فن العمارة وهندسة البناء ، وأن ينتقل بصاحبته إلى الموضوع الذى يتقنه ويعشقه ، فقال : « لقد وفقنا فى هندسة البناء إلى أن نقبل على الطراز الحديث ونرى له مزاياه الهائلة التى لا تجحد ؛ فهو أدنى إلى الاقتصاد وأوفق لمقتضيات العصر وأكثر قبولا

للتوسع والتجديد » ، ثم أضاف : «وقد علمت أن كثيرًا من الأحياء القديمة فى القاهرة قد هدمت وعلى الأخص من حول الجامع الأزهر ، وقامت مكانها طرق واسعة فسيحة ، تحيط بها أبنية كلها من الطراز الحديث ، وهكذا تتحول القاهرة المعزية بالتدريج إلى مدينة القاهرة الحديثة».

لقد كانت سارا تتوقع أن تكون حضارة الغرب قد طغى موجها على مدينة القاهرة الحديثة ولكن أمن الممكن أن يتناول التشويه والمسخ حَيَّ الجامع الأزهر ؟ فيا تعسًا للأيدى المنكودة التى باتت عاجزة إلا عن التشويه والتقبيح . . . . إن حى الأزهر ليس ملكا للقاهريين الممسوخين حتى يجعلوه مثلهم ؛ ممسوخًا مشوها دميما . . إن حى الأزهر ملك للعالم كله ، بل ملك لشىء أجلَّ من العالم » .

« فكيف ارتضى هؤلاء المحدثون الأشقياء أن يقوضوا بأيديهم دعائم وجودهم ، وأن يخونوا الأمانة التى ائتمنوا عليها » ؟

ولم يتردد عوض أن يكتب فى الإسلام مع ما كان لذلك من مخاطر وأخطار ، أقلها أن يوصم الكاتب بالرجعية وأن يتهم بالعصبية — ولكنه وقد رأى بثاقب نظره ونور إيمانه وصدق إسلامه أن غفلة المسلمين عن دينهم وحدوده وبعدهم عن شريعتهم وأحكامها واستظهارهم للنور الذى أُنزل إليهم كان هو الذى أطمع فيهم أعداءهم وأذهب عنهم هيبتهم ، فتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة على القصعة ، وأصبحوا غثاء كغثاء السيل وإن كانوا فى العدد كثيرا . كتب عوض فى إنكلترا وقد أثارت أشجانه للكتابة فتاة سألته عن روح الإسلام ، فقال متسائلا فى إنكار المشفق ولوعة المحب المؤمن : « ليت شعرى ماذا فى بلاد الإسلام من روح الإسلام؟ وماذا فى بلاد التوحيد من التوحيد ؟ » .

ثم يرسم عوض صورة لقومه جعلها كأنها رؤيا رآها فيقول : « رأيت البلاد وقد حلّق فوقها عُقاب البغى باسطًا عليها جناحيه ، ومنشبا فيها أظفاره ، وقد خضعت لسلطانه الرقاب وعنت لخشيته الوجوه وهلعت الأفئدة وذلت الأعناق ورغمت الأنوف وانطلقت الأفواه تسبح بحمده وتمجده وهو لا يزداد إلا بغيا وعُتوًّا ، والأعناق لا تزداد إلا خشوعا وذلا . وتبدلت الرؤيا بعد ذلك ، فأبصرت هيكلا عظيم البناء لا يبلغ الطرف مداه ،

ورأيت الناس منطلقين إلى أبوابه الكبيرة ليقيموا الشعائر . . . . زمر تسعى إثر زمر . . . جموع تتجاذب وتتدافع، وأفواج يموج بعضها فى بعض . . . . . ، ولا تكاد الأبواب تحتويهم على سعتها ... ثم انكشف الغطاء وأبصرت مابداخل الهيكل . . . فإذا أوثان هائلة قد نصبت فى أرجاء الهيكل ، ومن دون كل صنم مذبح عظيم تُقدم إليه القرابين ويُحرق عنده البخور والناس من حولها بين قائم وقاعد وراكع وساجد . . . . .

وقد حمل كل عابد قربانه : هذا يقرب الشرف ، وذاك يذبح الدين ، والآخر يقدم الوفاء والميثاق ، وذاك يقرب وطنه الذى نماه وغذاه ، وصاحبه يقدم الأهل الذين أنجبوه . . . وهاهنا شخص يحرق ضميره ومبدأه نحوراً ، وهناك آخر يضحى بما لديه من عفاف وكبرياء .. وكأن ليس فى العالم شىء أعز وأكبر من أن يكون قربانا لذلك الصنم الهائل الدميم الذى كان يقبل القربان حينا ويَزوَرُّ عن عبّاده أحيانا فلا يزيدهم نفوره وازوراره إلا تهالكا عليه ، وغلوًّا فى عبادته ، وإكثارا من الضحايا والقرابين . . . . . .

ثم نظرت إلى أطراف الهيكل فأبصرت جموعا أخرى عاكفة على أوثان أخر : ها هنا وثن الشهوات ، وقد احتشد عبيد من حوله ، وهنالك وثن المناصب والجاه والناس من حوله ركع سجود . . . وفى هذه الناحية وتلك : شكول وضروب من أصنام يكاد يخطئها العد ، ويعجز عنها الوصف » .

ولعوض عشرات المقالات الى ينقد فيها قومه ويبصرهم بأخطائهم ومغبتها ويزين لهم الخير والحق والجمال وفى كتابيه الجليلين : « من حديث الشرق والغرب » و « ملكات الجمال » روائع خالدة من النقد الساخر الفكه لأحوال المصريين والعرب والمسلمين ؛ ولو قد أمنت السيد الرئيس وسطوته لاستطردت فى ترديد الكثير من هذه الحكم الغالية والعظات البليغات .

الأستاذ الرئيس

حضرات السادة والسيدات

ما أبلغ الدكتور عوض حين أجرى بيتين من شعر الحكمة الخالدة على لسان شاعر مصرى قديم فى قصته الرائعة « سنوحى » فجعله يقول مخاطبا الدنيا :

يا منزلا بالرغم منى نزلته ،

وبالرغم منى عنه سوف أزول

إذا لم تطب فيك الإقامة ساعةً

فما جزعى من أن يحين رحيل؟

ولقد حان الرحيل وانتقل عوض إلى جوار ربه الكريم وآثر الدار الآخرة الخالدة على الدار الدنية البائدة ، فرضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة العالية مقره ومثواه ، وأفاض عليه من رحمته ورضاه ، وأنزله منازل الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

والسلام عليكم ورحمة الله .

• كلمة الجغرافيين للدكتور سليمان حزين

إنا لله وإنا إليه راجعون

كان اليوم من أيام مطلع شتاء سنة ست وعشرين وتسعمائة وألف ؛ وكان المكان قاعة من قاعات الدرس فى ذلك البيت القديم الملحق بمبنى كلية الآداب فى سراى الزعفران وكان الوقت بعد الظهر ، وكانت الجماعة طائفة ، هى الطليعة الأولى لكلية الآداب من طلاب السنة الثانية ، وكان عددهم سبعة وعشرين ، ليست بينهم فتاة ، وكان القادم إلينا فى قاعة الدرس شاباً سامق القامة ، فاحم الشعر ، ثابت الخطى ، دخل علينا وعلى محياه بسمة رقيقة ولكنها مكتومة ، وكانت سمعة ذلك الشاب قد سبقته إلينا فعرفنا أن اسمه (محمد عوض محمد) ، وأعجبتنا الحبكة فى اسمه ذلك ، وإن كنا مالبثنا بعد أن عرفناه أن اكتفينا بالقسم الأوسط من اسمه .

وكانت قلة العدد إذ ذاك أساتذة وطلاباً تتيح الفرصة لأن يتساءل الناس عن كل قادم إلى الكلية ، وإلى أن يحاولوا أن يعرفوا طرفاً من خبره قبل أن يقدم ، وعرفنا أن ذلك الشاب من أول من حصلوا على الدكتوراه فى مادة الجغرافيا من الخارج ، وأنه قبل ذلك كان طالباً فى مدرسة المعلمين العليا ، جاء من صميم الشعب فى الريف ، إنه واحد من أولئك الذين قدحوا الزناد ، وتطاير بهم الشرر قبل أن تكون ثورة العام التاسع عشر من هذا القرن على أرض مصر ؛ فثار

مع الثائرين ، بل ثار بالثائرين ، ثار ونحى عن الدراسة رغم سنه الصغيرة وأُخرج إلى (مالطة) ، وهناك استطاع الاستعمار أن يحبس جسم ذلك الشاب » ولكنه لم يستطع أبداً أن يحول بين روحه وبين أن تنطلق إلى آفاق العلم والمعرفة ، أتقن اللغات ، وانطلق إلى التفكير فى أرضها ، أرض مصر التى نشأ فيها . بل أنفق تلك السنوات فى (مالطة) وهو يفكر فيها ، كيف يعود ؟ وماذا يفعل حين يعود ؟

عرفنا أيضاً أن ذلك الشاب العملاق فى شخصه وشخصيته ، خرج إلى إنجلترا ، ودرس ؛ ثم عاد إلينا . ولكننا لم نعرف إذ ذاك أنه كان مقسوماً أن نعيش مع هذا الشاب أكثر من أربعين عاماً ، ونتتلمذ عليه ، ونأخذ عنه ، ونحيا حياتنا معه بالطول والعرض . منذ أيامه الأُولى كان أستاذا لامعاً ، ليس بمعرفته للجغرافيا فحسب ، إنما أيضا فى أسلوبه الذى كان يحدثنا به ، وفى لغته التى كان يتعصب لها أشد التعصب . كانت عادة إذ ذاك أن يعود الأُستاذ من إنجلترا أو فرنسا وأن يحدث تلاميذه فى قاعة الدرس بلغة لاهى عربية ولاهى غير عربية ، بلغة مختلطة ، وكان مركب النقص يطغى على الكثيرين من المتحدثين بحيث أفقدوا الطلاب الثقة بأن لغتنا العريقة التى عاشت على الزمان ستة عشر قرنا أوما يزيد قادرة على أن تصبح وعاء الثقافة الحديثة ، وعاء العلم الحديث ، ولكن (عوضا) لم يكن من هؤُلاء ، لم يكن حريصاً على اللغة فحسب ، وعلى جعلها حديثه ، إنما كان حريصاً عليها أشد الحرص وعلى أن يربينا عليها ، وأن يحاسبنا على كل خطأٍ فيها ، وفى حقها .

أذكر فى يوم من الأيام أنه كان يلقى علينا درساً فى جغرافيا الرياح ، فتحدث عن مهب الريح والجهة التى تهب منها ، ثم أراد أن يتحدث عن الجهة التى تنتهى إليها الريح . كان اللفظ الإنجليزى معروفاً ، ولكنه توقف وقال : إننى أعرف اللفظ الإنجليزى ولكننى لن أستخدمه ، وإن كان قد كتبه على السبورة ، ثم وضع يده على جبينه ، وكأنه يقدح تلك القريحة التى أذكاها الله بنوره حتى يومه الأخير ، ثم قال : لقد وجدت اللفظ ، ولعله أن يصبح مصطلحاً ، إنه «منصرف الريح» فخرجنا منذ ذلك اليوم ونحن لانزال نطلب العلم بالسنة الثالثة فى كلية الآداب بلفظ

«منصرف الريح» ليقابل «مهب الريح» وكان هذا مثالا واحدا من أمثلة كثيرة استطاع (عوض) بها أن يسهم فى بناء لغتنا العربية الحديثة ، وأكثر من ذلك أن يبعث الثقة فى أنفسنا بتلك اللغة .

وعرفنا عن (عوض) أنه كان الأستاذ اللامع ، لافى قاعة الدرس وحدها ، وإنما كذلك فى مجال البحث العلمى ، فاللغة لاتحيا إن كانت مجرد أداة للتعليم ، بل ينبغى أن تصبح أداة للبحوث العلمية الحديثة .

كتب وألف وأخرج للناس كتبا ، ولكنه كان بعبقريته الفذة يستطيع داءاً أن يصوغ الصعب فى القالب السهل ، وأن يجمع فى كتبه ومقالاته بين أعمق الأفكار وأصعبها .

يبين حاجة الجماهير العادية ، وبذلك خرج ببحوثه عن نطاق أن يكون دروساً فى الجامعة إلى نطاق أن يصبح معلماً للناس . ترك لنا كتبا مثل كتاب «نهر النيل» ، وهو الكتاب الذى أشهد شهادة لله أنه أروع وأدق وأعمق ما كتب عن هذا النهر العظيم ، فى أية لغة من اللغات ، وترك لنا كتاب «سكان هذا الكوكب» واختار له اسماً أدبياً يحبب الناس فيه وفى قراءته ، ولكن مضمون الكتاب جغرافى أصيل ، وترك لنا كتاب «قواعد الجغرافيا العامة» للمدارس الثانوية فى سنتها النهائية ، وكان ذلك الكتاب فتحاً جديداً لأنه أدرك أن جغرافيا الجامعة ينبغى أن تبدأ قبل الجامعة .

وترك لنا كتاب «سكان السودان الشمالى» وكتاب «الاستعمار والمذاهب الاستعمارية» وغير ذلك من الكتب فى مادة الجغرافيا الطبيعية والبشرية على السواء ، ولكن الذى لايعرفه الناس هو ما كتبه (عوض) بغير اللغة العربية ، وكان أول مقال حرره بالإنجليزية خلاصة بحث ألقاه فى مؤتمر جغرافى انعقد فى عام ثمان وعشرين وتسعمائة وألف فى إنجلترا ، وكان عن نهر النيل وتطوره ولايزال هذا المقال مرجعاً حتى يومنا هذا .

وكتب مقالات كثيرة فى الجغرافيا الطبيعية والبشرية ، وقرأها عنه الناس ، ونقلوا عنها فى كل مكان .

كنا فى كلية الآداب نعرف (عوضاً) ونقدره ونكبره ؛ وكنا فى ذلك كله نحاول

كطلاب أن نسعى سعى (عوض)، وكان هو في أسلوبه معنا وفي تربيتنا كطلاب باحثين أستاذاً عزيزاً ، بخلاف غالبية زملائه من الأساتذة . لم يحاول في يوم من الأيام أن يترضى تلاميذه ، ولا حتى أن يترضى أصدقاءه وزملاءه في العلم ؛ كان أستاذاً ظاهره الشدة ، ولكنه كان دائماً يقصد الحق والخير فيما يقول ، علمنا أن نبحث في العلم عن الحقيقة ، ولكننا بضمائرنا التي تخدم العلم ينبغي أن نبحث عن الحق ، عن الحق في حدود المعرفة ، وعن الحق في معاملة الناس سواء أكنا من التلاميذ أم من الرفقاء . هذه الشدة التي ظهرت في مظهره كنا نعرف أنه يقابلها ويعادلها روح من المحبة والطيبة ، وأشهد الله أنني لم أعرف بين زملائي أستاذاً طيباً كما كان (عوض) . كانت هذه الطيبة هي التي ربطتنا به ، وجذبتنا إليه دائماً ، وأرجعتنا إليه حين غضبنا منه ، لأنه كان قاسياً في الحق ، وهي التي جعلتنا نقدر هذا الرجل ، أو هذا الإنسان ، وهي التي جعلت تلاميذه وزملاءه من أمثالي يأتون إليه دائماً ، ويشاورونه ، حتى في أخص خصائص حياتهم الخاصة .

كنا نعرف أنه يحب من قلبه وأنه يعالج مشكلاتنا بالعطف علينا ، وإن أظهر النقد ، وإن بدت السخرية لاذعة في بعض تعليقاته أحياناً ، وبادلنا هو ذلك الحب ، أو على الأقل بادل طائفة كبيرة منا ذلك الشعور فعرفنا سره كله ، ولذلك عشنا حياتنا مع هذا الرجل ، بل هذا الإنسان ، وعرفنا عنه أنه لم يخلق ليصبح عالماً من الطراز العادي ، وإنما كان مواطناً أيضاً ؛ محباً لوطنه ، محباً لهذه التربة السمراء التي نشأ منها وأخرجته ، فأصبح رجلا يحب مصر ، وكان مع الشرارة الأولى في ثورتها الأولى . وكان وطنياً بلغت به الوطنية حداً يدعو للتضحية أولا وقبل كل شيء ، وانعكست هذه الوطنية على ولائه للجامعة ، فكان واحداً من ثلاثة أخرجوا من الجامعة في أزمة من أزماتها الكبرى ، كان أولهم أستاذنا طه حسين مد الله عمره . وكان الثاني لطفي السيد رضي الله عنه وكان الثالث (عوضا) أرضاه الله . لم يجزع إذ ذاك ، كان همه أن يثبت للناس أن في الجامعة رجالا ، وأنها ليست طائفة من العلماء الذين تجري عليهم الدولة الأرزاق ، أراد أن يثبت أن العالم قبل أن يكون عالماً ينبغي أن يكون رجلا ، وأن يكون وطنياً بكل

ماتعنى هذه الكلمة . كنا نعرف أن كفاياته فى هذا المجال أو ذاك لم تكن لتقف عند حدود وطنه ، إنما انصرف لها ، وطوف بها فى الآفاق العالمية ، فهو حين أصبح من الناضجين حقا عرفت المحافل الدولية قيمته ، قيمة ذلك الإنسان (عوض) ، فهو الذى شارك فى لجنة حقوق الإنسان ، بعد أن شارك قبل ذلك فى وضع ميثاق الأُمم المتحدة ذاته ، وإعلان حقوق الإنسان ، بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، فى عام خمسة وأربعين وتسعمائة وألف ، وفى عام ثمان وأربعين وتسعمائة وألف . ثم تخصص فى جانب معين من جوانب حقوق الإنسان فعهدت إليه الأُمم المتحدة أن يدرس موضوع الرق ، ووضع وثيقة تعتبر الآن الوثيقة العالمية الأُولى فى هذا الموضوع، الموضوع الذى يمس استعباد الإنسان لأخيه الإنسان ، سواء أكان الاستبعاد على المستوى الفردى ، أوالمستوى الجماعى ، وهو الموضوع الذى كان فى ذهنه دائماً حين ألف كتاب الاستعمار والمذاهب الاستعمارية فذلك الكتاب لم يكن مقصوداً أبداً أن يكون وثيقة تاريخية وعرضا تاريخياً ، وإنما كان المقصود به دائماً أن يكون بحثاً متعمقاً فى أخلاقيات المعاملات الإنسانية بين الشعوب ، ذلك هو الجانب العميق فى (محمد عوض محمد) الذى لم يكن فيلسوفاً فحسب وإنما كان أيضاً رجلا اجتماعيًّا ، وإن لم يشأ لنفسه أن يكون رجلا اجتماعياً بالمعنى الدارج المتعارف عليه ، عرف الجماعة ، وعرف أن من حق المجموع على الفرد أن يكون فى خدمته بجسمه فحسب ، وإنما بعمله وفكره وضميره ، عرفت ذلك عنه ونحن طلاب فى الكلية لانزال ندرس . عرفت عنه حين خرج إلى نطاق الحياة العامة خارج الكلية . فكان من أُولئك الأوائل بين أبناء مصر الذين عرفوا أن الدولة قد أنفقت عليهم لتعدهم ، فأخذوا الفرصة التى تعادل آلاف الفرص المتاحة للفلاح العادى فى الريف ، فرصة التعليم ، وفرصة العمل ، وفرصة المسئولية ، وفرصة الاتصال الدولى.

من هنا كان واحداً من مؤسسى جماعة هى جماعة (الرواد) التى ما أظن إلا أن زميلى الدكتور محمد سليمان كان يقصدها ، وكان واحداً ممن آمنوا بأن قوة المجتمع من قوة الفرد ، بل آمن بأن قوة الفرد يجب أن تكون فى قوة المجتمع ، ومن قوة المجتمع ، وإلى قوة المجتمع .

علمنى (عوض) فى تلك الجماعة الكثير والكثير ، خرج (عوض) إلى نطاق الخدمة الاجتماعية ، فكان واحداً من مؤسسى الجمعية المصرية للخدمة الاجتماعية ، وكان واحداً من أولئك الذين خططوا لأول وزارة للشئون الاجتماعية فى مصر قبيل الحرب العالمية الثانية ، وكان واحداً ممن خدموا دون أن يعلنوا ودون أن يباهوا ويفاخروا ، فكان المواطن الذى يفعل الخير للمجتمع ، وأروع ذلك ما تتمثل فيه الخدمة الاجتماعية خالصة لوجه الله ولوجه الوطن ، (فعوض) لم يكن الرجل الذى يسعى لأن يجنى ثمار مافعل ، فهو واحد من أولئك الذين عملهم فى الدنيا وأجرهم فى الآخرة .

صحيح أن الدولة أعطته الفرصة فى أن يصبح أستاذاً ، وأن الدولة أخرجته فى ركن من الجامعة ، فخرج إلى ركن آخر يخدم الجامعة ، وصحيح أنه تولى الكثير من المناصب ، وكان أعلاها إن يصبح مديراً لجامعة الاسكندرية ، وواحداً منها أن يصبح وزيراً للمعارف .

وكان من حسن حظى أن تابعته فى بعض تلك المناصب ، وكنت أعمل معه وكيلا لوزارة التربية والتعليم — أو المعارف إذ ذاك — وكان أخص ما علمنى فى تلك الفترة القصيرة أن المعلمين مثلنا ، عملهم فى الدنيا وأجرهم فى الآخرة ، ولكن لابأس فى أن يتقاضوا بعض هذا الأجر كمقدم فى هذه الدنيا ، ولم يطل به الوقت فى وزارة التربية والتعليم ، ولكنه كان فى تلك الفترة أستاذاً وأخاً وصديقاً لكل معلم .

وخرج عمله فى مجال التربية والتعليم ، والثقافة إلى نطاق أوسع ، وأذكر أننا كنا فى خريف عام أربع وخمسين وتسعمائة وألف فى (منتفديو) عاصمة (أورجواى) وكان (عوض) قبل ذلك قد عرف فى المجال العالمى ، لأنه رأس أحد أقسام (يونسكو) فى باريس ، ولكننا كنا نريد إذ ذاك أن يكون لمصر مقعد فى مجلس اليونسكو — (المجلس التنفيذى لليونسكو) .

وكان معى واحد من تلاميذ (عوض) الآخرين فى الوفد ، فالتقينا به وحدثته فى شأن أن يتقدم لانتخابات العضوية ، فتهيب أولا ، لا لأنه كان يخشى عدم النصر والتوفيق ، وإنما لأنه كان يريد أن يأتى ذلك التوفيق شاملا كاملا ، لأنه باسم مصر وباسم الثقافة العربية فى مصر ، وهناك حاولت أن أطمئن ، ولكننى كنت

أعرف سره وأسلوبه ، وقدرته على التأثير ، فرجوت إليه أن يعد خطاباً ، ويلقيه فى المؤتمر قبيل ساعة الانتخابات ، وكنت أعرف من هو (محمد عوض) ، فوقف يتحدث فى الناس ، وكان رائعاً باهراً ، لاتعوزه الفطنة المصرية ، ولا اللباقة المصرية ، ولا النكتة المصرية ، ونزل (عوض) والناس كلهم إعجاب ، فجاء اليوم الثانى ونال (عوض) الإجماع كله ، فيما عدا صوت دولة واحدة ، هى دولة الأعداء .

ذلك مثل مما كان (عوض) يستطيع أن يحققه فى المجامع الدولية .

تلك حياة عشتها شخصياً معه ، واعذرونى أن ركزت كلمتى هذه على تلك الجوانب الشخصية ، لأننى لاأكاد أتصور حياتى ماذا كانت تكون لو لم يكن (عوض) معى ، أستاذاً وعالماً وصديقاً ، ورفيقاً ؟ إن الدمع ليترقرق يا (عوض) ولكنك علمتنى ألا أدع الدمع ينحدر .

لقد كان (عوض) أمة فى إنسان ، كان أمة فى رجل . لئن غيب عنا الرجل فإن الأمة ستبقى لأنه فى الخالدين ، وسلام عليك يا (عوض) يوم خرجت إلى الدنيا ، وسلام عليك يا (عوض) يوم خرجت من الدنيا ، وسلام عليك يا (عوض) يوم نلقاك مع الخالدين .

• كلمة الأسرة ألقاها الأستاذ مالك محمد عوض محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ نائب رئيس مجمع الخالدين :

السادة الأعضاء .

سيداتى ، وسادتى :

باسم أسرة الفقيد التى رعاها خير رعاية فى حياته :

أتقدم إليكم بجزيل الشكر ووافر الامتنان على تكرمكم بالحضور لهذا الحفل ، كذكرى للراحل الكريم تنزل برداً وسلاماً على روحه الطاهرة ، فالذكرى للإنسان عمرثان . ولن تنسى أسرة الفقيد ماسبق أن قدمه مجمعكم الموقر والسادة أعضاؤه : من سابق عزاء للأسرة ، كان له أوقع الأثر لديها .

نسأله تعالى أن يجزيكم عنه خير جزاء .

وإنا لنشكر من الأعماق الأستاذ الدكتور

محمد أحمد سليمان ، والأُستاذ الدكتور سليمان حزين على تفضلهما بإلقاء كلمة التأبين ، تقديراً لما قدمه الفقيد فى حياته من أعمال مجيدة فى خدمة العلم والوطن ، فليطمئن فقيدنا فى مثواه بما قدمت يداه «يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فأدخلى فى عبادى وادخلى جنتى ».